جمهورية مصر العربية
وزارة التربية والتعليم
والتعليم الفنى
الإدارة المركزية لشئون الكتب

الأيـــام

لعميد الأدب العربى

الدكتور طه حسين

الصف الثالث الثانوى

غير مصرح بتداول هذا الكتاب
خارج وزارة التربية والتعليم والتعليم الفنى

٢٠٢١ ـ ٢٠٢٢ م

لجنة الإعداد التربوى

أ . د . رشدى أحمد طعيمة

د . منـــى اللـــبودى د . إسماعيل محمدعبد العاطى

مقدمة نقدية

بين يديك كتاب «الأيام» الذى يمثل سيرة ذاتية تشكلت خلالها بطريقة فنية، الخطوط العامة، لرحلة الحياة التى عبرها، عميد الأدب العربى طه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣) مع تنوع فى المكان، وتطور فى الزمان، ومواجهة للصعاب والعقبات، واستنفار للقوى الكامنة فى النفس، وتسلح بالعلم والمعرفة، وتدرج بالتحمل والصبر، واعتراف بالأخطاء والهفوات حين تقع، مع التأمل فيها واستخلاص نتائجها وعدم الانكسار أو التراجع أمامها، ومواصلة السير نحو الهدف المرسوم.

من قرية «الكيلو» على مشارف المنيا فى صعيد مصر، إلى قاهرة بدايات القرن العشرين، حيث تتشكل بدايات خطوط تفاعل التراث الفكرى العتيق مع العلوم والأفكار الوافدة مع انفتاح مصر على الثقافة الغربية عامة، والفرنسية خاصة، يلتقى فى «صحن الجامع الأزهر» هذا الفتى الضرير، الذى لم تمنعه آفته، من محاولة التغلب على العوائق وطلب المعرفة مابعد منها وما قرب، وما لان منها وما صعب، وما بدا مطلوبا منه وهو قليل، وما بدا معذورا لو تركه وهو كثير، وانطلق الفتى الضرير ليقدم نموذجا لإصرار الشاب المصرى العربى، ونجاحه، وحين تصح عزيمته، وتقوى إرادته، ويحول طموحه إلى خطوات عملية، تتحول إلى درجات لارتقاء المجد، وإثبات الذات فى عالم الخلود.

ومن هذا المنطلق، بقيت العزيمة الراسخة، وإن تغيرت ساحات المكان، وأوقات الزمان، من ردهات[1] الجامع الأزهر حيث المتون والشروح القديمة وحلقات الشيوخ فى النحو والصرف والفقه والتفسير، إلى صالات الجامعة الأهلية الناشئة حيث محاضرات «الأفندية» والمستشرقين فى علوم الحضارة والتاريخ والاجتماع، يتابعها الفتى الضرير، ويتوج عمله بالحصول على أول شهادة للدكتوراه تمنحها هذه الجامعة سنة ١٩١٤م، ثم يؤهله ذلك للسفر إلى مكان أبعد، حيث قاعات المحاضرات وفصول الدراسة فى جامعات فرنسا، يلقى فيها الفتى الضرير، من المشقة فى تعلم الفرنسية ـ والإلمام باللاتينية، ودراسة المناهج الحديثة فى علوم الاجتماع والتاريخ، وما تتوجه شهادة الدكتوراه بعد الليسانس من فرنسا، ويعود بعدها إلى مصر ليقضى أكثر من نصف قرن، ويتغلب على عقبة إثر أخرى، ويجنى ثمرة بعد ثمرة فى مجالات الحياة الأدبية والفكرية والتعليمية والسياسية والإبداعية على مستوى العالم العربى كله.

وقد كتب طه حسين الملامح الرئيسة لهذه الحياة الحافلة فى كتاب «الأيام» بأجزائه الثلاثة، وهو كتاب ينتمى إلى فن أدبى رفيع، هو فن «السيرة

---

(١) الرُّدْهَة : مدخل البيت الذى تفتح عليه حجراته وطرقاته.

الذاتية» الذى يقف وسطا بين مجموعة من الفنون والأجناس الأدبية مثل الرواية، والتاريخ، وفن كتابة التراجم والأعلام، وهو من أجل هذا يستفيد مما يوجد فيها جميعا، فيستطيع أن يمزج بين الذاتية والموضوعية، وبين الحقيقة والخيال، وبين حياد الكاتب وانفصاله النسبى عن الموضوع الذى يعالجه كما يفعل المؤرخ، وبين تعاطف الكاتب مع المادة التى يكتب عنها واتصاله بها، لأنها تمثل فى الواقع جزءا منه، كما يفعل الشاعر أحيانا، بين معرفة الكاتب لكثير من جوانب الشخصية التى يكتب عنها، كما هو شأن الكاتب الروائى- وبين معرفة الكاتب لكل جوانب الشخصية، واختياره ما هو مناسب منها كما هو شأن كاتب السيرة الذاتية.

وهذا الامتزاج والتلاقى لكثير من قواعد الأجناس الأدبية فى فن السيرة الذاتية يجعل منها فنانا يحتاج إلى كثير من الخبرة والتوازن فى الاختيار والترك، والدقة فى المعالجة، حتى يجىء كتاب السيرة الذاتية ناجحا ومؤثرا، وكثير من الكتاب الذين لايتنبهون إلى هذه المعايير الدقيقة، ويقدمون على كتابة سيرهم الذاتية، يخاطرون بأن تقع أعمالهم فى هوة النسيان، أو تتحول إلى مجرد مباهاة وثرثرة لا تترك أثرا ولاصدى طيبا باقيا فى النفوس والعقول.

لقد أدرك طه حسين ذلك، واستفاد كثيرًا من قراءته لروائع الأعمال العالمية فى السيرة الذاتية- وخاصة فى الأدب الفرنسى، مثل «اعترافات» جان جاك روسو، فى القرن الثامن عشر، والسير الذاتية لألفريد دى موسيه فى القرن التاسع عشر، وأندريه جيد فى القرن العشرين، وغيرهم من كتاب السيرة الذاتية فى الأدب العربى، من أمثال ابن سينا، وابن خلدون، وعبداللطيف البغدادى، وأسامة ابن منقذ، ورفاعة الطهطاوى، وعلى مبارك، وأدرك من خلال هذا كله أهمية اختيار العناصر والأحداث الدالة فى حياة الإنسان، والتنسيق بينها، لرسم صورة إنسانية كاملة من خلال السيرة الذاتية تترك تأثيرها الفنى والأدبى والخلقى فى النفوس على مدى العصور، دون أن تتوقف أمام كل التفاصيل والأحداث العارضة، التى قد يمر المرء بالكثير منها كل يوم فى حياته، والتى قد يؤدى ذكرها دون أناة فى الاختيار وتنسيق فى العرض، إلى التكرار والملل.

وأدرك طه حسين كذلك قيمة فنية عالية، تتصل بفكرة «اعتراف» كاتب السيرة بنقاط ضعفه، وشجاعته، فى أن يكتب عنها بدلا من التركيز فقط على نقاط قوته، وتفوقه، ولقد كان طه حسين بارعا، وهو يقف مع الطفل الضرير، وهو يتعثر ويخطئ فى أبسط الأشياء حتى أنه عندما جلس يشارك أبويه، وإخوته الطعام على مائدتهم البسيطة التى يأكلون خلالها من

طبق واحد ظن أنه لو غمس لقمته فى الإناء بكلتا يديه، كان ذلك أحسن له، ففعل ورفعها إلى فمه. أما إخوته فأغرقوا فى الضحك، وأما أمه فأجهشت بالبكاء، وأما أبوه، فقال فى صوت هادئ حزين: ما هكذا تؤخذ اللقمة يا بنى.. وأما هو فلم يعرف كيف قضى ليلته».

إن كل هذه الاعترافات هى التى شكلت للأيام مذاقا خاصا، وجعلت قارئها العادى يحس أنه يستطيع ـ هو أيضا ـ أن يتغلب على نقاط ضعفه، وأن يحلم بتخطى العقبات، وبالوصول إلى العظمة التى وصل إليها الكاتب.

ومع أن طه حسين، يبدو أنه يسترسل فى نسيج سيرته الذاتية، بعفوية وبساطة، فإنه يجعل وراء ذلك دقة وفنا فى الصورة والصياغة والبناء الفنى، ويعرف كيف يجعلنا نرى الدنيا مع الفتى الضرير من خلال رهافة سمعه، وتركيز عقله، وقوة إرادته وحلاوة لسانه، ويبدو ذلك كله من خلال الدقة فى اختيار المفردات ذات الرنين الخاص، وترديدها وتكرارها وفقا لمعايير التأثير الصوتى الدقيق، ويبدو كذلك، فى غلبة الصورة السمعية أواللمسية أو صور الروائح، بالقياس إلى الصور البصرية على امتداد صفحات الكتاب.

إن فن السيرة الذاتية فى الأدب العربى الحديث شكل النواة الرئيسة لكثير من إنتاج فن الرواية الحديثة، وأصبحنا نملك تراثا من السير الذاتية بعضه تتم كتابته فى صورة الحديث المباشر عن الذات بضمير المتكلم كما حدث فى كتابات العقاد لسيرته الذاتية فى مؤلفات مثل «أنا» أو «فى بيتى» أو «حياة قلم» ، أو الحديث عن الذات بضمير الغائب، مثل كتاب «الأيام» الذى بين أيدينا، وهو يتحدث دائما عن «الفتى» وأحيانا تختفى السيرة الذاتية وراء عمل روائى، يرسم حياة شبيهة بحياة المؤلف كما هو الشأن فى رواية «زينب» للدكتور محمد حسين هيكل، ورواية «إبراهيم الكاتب» لإبراهيم المازنى، أو رواية «سارة» للعقاد، أو «عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم، أو «الثلاثية» لنجيب محفوظ.

إن كتاب «الأيام» ليس مجرد سيرة ذاتية جميلة، ولكنه مفتاح للدخول إلى عالم الأدب العربى الحديث، وإلى عالم النفوس الكبيرة، التى تعرف كيف تصبر وتكافح وتعمل من أجل تحقيق المجد، فتحقق لنفسها ما أرادت، وتقدم للأجيال اللاحقة نموذجا تحتفيه، وتجربة تتمتع بها وتستفيد منها.

أ.د. أحمد درويش

استاذ النقد الأدبى والأدب المقارن ـ جامعة القاهرة

محتويات السيرة

الموضوع **الصفحة**

- مداخل ضرورية : أ . د. رشدى طعيمة..... ١
أ . فن السيرة الذاتية. ١
ب . طه حسين: خصائص أسلوبية ٣
ج . الأسس التربوية لتدريس " الأيام "..... ٥
كلمة المؤلف ١١
الجزء الأول ..... ١٤ – ٥٥
١. خيالات الطفولة ١٥
٢. ذاكرة صبى ١٩
٣. أســـرتى ٢٢
٤. مرارة الفشل ٢٣
٥. الشيخ الصغير ٢٥
٦. سعادة لا تدوم ٢٧
٧. الاستعداد للأزهر ٣٠
٨. العلم بين مكانتين ٣٣
٩. سهام القدر..... ٣٧
١٠. بشرى صادقة ٤٨
١١.بين أب وابنته ٥١
١٢.الجزء الثانى ..... ٥٦ – ١٢٩
١. من البيت إلى الأزهر ٥٧
٢. حب الصبى للأزهر ٦٢
٣. وحدة الصبى فى غرفته ٧٠
٤. الحاج على وشباب الأزهر..... ٧٧

٥. الإمام محمد عبده والأزهر ٨٧
٦. انتساب الصبى للأزهر ٩٣
٧. قسوة الوحدة ٩٨
٨. فرحة الصبى ١٠٠
٩. تغير حياة الصبى ١٠٢
١٠. تمرد الصبى ١٠٩
١١. إقبال الصبى على الأدب ١١٦
أســـئلة عـــامـــة..... ١٣١

مداخـــل ضرورية

(أ) فن السيرة الذاتية

السيرة الذاتيـة فـن مـن فنـون الأدب مِثْلُـها فـى ذلـك مثـل الشـعر والرواية والقصة القصيرة غير أنها تختلف عـن هـذه الفنـون؛ لأنهـا لاتقـوم على الخيال وحده وإنما ترتبط ارتباطا وثيقا بحياة مؤلفها.

وهكذا يمكن تعريف السيرة الذاتية بأنها «قصة حياة مؤلف يرويهـا بنفسه نثرا، ويعتمد على ذاكرته فى استعادة تفاصيلها المنسية».

مؤلف السـيرة الذاتيـة- إذًا- لا ينقـل عـن مـذكرات مكتوبـة وإنمـا يستعيد بالذاكرة أحداثا وصورًا وشخصيات وأماكن مضى عليها زمن طويل، ولهذا فإن هذه الأحداث والصـور الآتيـة مـن الماضـى تتلـون بلـون الحاضـر وتتحرك بدوافعه، فإذا كان لون الحاضر قاتماً-على سبيل المثال- سـتذهب ذاكرة المؤلف إلى استعادة الألوان القاتمة من طفولتـه وتعمـل علـى تجميعهـا فى صورة أو قصة لها معنى، وإذا كانت دوافع المؤلف فـى الحاضـر أقـرب إلى التحدى — مثلا- فإن ذاكرته ستذهب تلقائيـا إلى مشـاهد التحـدى فـى طفولته، وتعمل على تجميعها.

ودوافع المؤلفين إلى كتابة سـيرهم الذاتيـة، دوافـع متنوعـة بطبيعـة الحال؛ فقد يكون الدافع هو مجرد الحنين إلى الطفولة السعيدة، وقد يكـون الدافع هو الرغبة فى تقديم مثال يحتذيه الشـباب، وقـد يكـون الـدافع هـو مراجعة الذات والتاريخ، وقد يكون هو الإعلان عن تحدى الحاضر، بل قد يكون -أحيانا- هو الرغبة فى الانتقام من هذا الحاضر.

ولكـن مهمـا يكـن مـن اخـتلاف دوافـع المـؤلفين إلى كتابـة سـيرهم الذاتية، فإنهم يكتبون هذه السير فى صورة روايـة متماسـكة الأحـداث أى أنهم يختارون بالضرورة بعض أحداث طفولتهم وشـبابهم ويهملـون بعضـها الآخر، ورغم أنهم لا يعمدون إلى الكذب على القارئ فإنهم يضطرون أحيانا

ولدوافع فنية إلى اختراع بعض الصور والأحداث لإضافة بعض الرتوش على قصة حياتهم، ولسد فجوات الذاكرة ولإضفاء قدر من التماسك الفنى على الأحداث والصور المبعثرة، المهم فى النهاية أن السيرة الذاتية تتخذ فى الغالب شكل «رواية » مترابطة الأحداث والصور.

ولهذا كان طبيعيا أن تلعب السيرة الذاتية دورا أساسيا فى نشأة الرواية العربية الحديثة، فقد عمد رواد الأدب العربى الحديث إلى كتابة سيرهم الذاتية فى صورة روايات، وقد احتلت هذه الروايات مكانها الراسخ فيما بعد، وأصبحت علامات فى الأدب العربى الحديث. ولعل من أشهر هذه العلامات كتاب «الأيام » لطه حسين، وكتاب «إبراهيم الكاتب» لإبراهيم عبدالقادر المازنى، وكتاب «عودة الروح » و«عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم.

وتقوم السيرة الذاتية — شأن كل فنون الأدب الأخرى — بتعليم القارئ، وذلك من خلال إمتاعه، والتأثير فى مشاعره، بما تعرضه عليه من فن جميل، وصور مؤثرة، وقصة لها حبكتها. غير أن السيرة الذاتية قد تقوم أيضاً — وعلى خلاف فنون الأدب الأخرى- بتعليم القارئ على نحو مباشر؛ لأنها تنقل إليه خبرات كاتب كبير حول الحياة، ولأنها تقدم جانباً من الواقع والتاريخ الحقيقى المشترك بين المؤلف وقارئه.

(ب) طه حسين.. خصائص أسلوبية

طه حسين كاتب له أسلوبه المميز، وهو أسلوب لا تخطئه العين ولا الأذن. بأنه يقف ومن غير شك، على رأس الكُتَّاب ذوى الأسلوب المميز فى الأدب العربى الحديث.

وأهم ما يميز أسلوب طه حسين، أنه كاتب يتحدَّث إلى قارئه أكثر مما يكتب إليه؛ ولهذا تقوم كتابته على مخاطبة القارئ ومجادلته، والتأثير فيه بكل الطرق الممكنة، وكأن القارئ يستمع منصتاً إلى صوت طه حسين يتحدث إليه.

ولهذا كان أبرز ما يميز لغة طه حسين، أنها تتمتع بإيقاع وموسيقى رنانة وهو إيقاع ناتج عن الجمل القصيرة واللوازم الأسلوبية المتكررة. ومن ذلك مثلاً، تكراره اللافت لفعل «يذكر» و«لا يذكر»، وفعل «يرجِّح» فى الصفحات الأولى من كتاب «الأيام»، وما فى ذلك من وقع موسيقى وتأمل مرة أخرى، الفقرة الافتتاحية من كتاب الأيام:

«لا يذكر لهذا اليوم اسمًا، ولا يستطيع أن يضعه حيث وضعه الله من الشهر والسنة، بل لا يستطيع أن يذكر من هذا اليوم وقتًا بعينه، وإنما يقرِّب ذلك تقريبًا».

ولنلاحظ حتى فى هذه الفقرة الافتتاحية القصيرة من كتاب الأيام، أن طه حسين لا يكتب سيرته الذاتية بضمير المتكلم على النحو المعتاد، وإنما يستخدم ضمير الغائب، وكأنه يتحدث عن شخص آخر غريب عنه، سرعان ما سيسميه بعد ذلك «صاحبنا». وهذه خاصية أخرى من خصائص أسلوب طه حسين كما نراها فى كتاب الأيام، إنه يحاول أن يضفى نوعاً من الموضوعية على قضية ذاتية جدًّا. هى قصة حياته الشخصية.

ويكشف كتاب الأيام أيضاً عن خاصية أخرى فى أسلوب طه حسين القصصى، وهى اعتماده على السمع وعلى حواس أخرى غير

البصر، وقدرته بهذه الوسائل وحدها على رسم العالم القصصي بتفاصيله. وأوضح مثال على ذلك ما نراه في بداية «الأيام» أيضاً من رسم لمعالم قرية الطفل القائم على الظن: صوت العودة من الحقول في المساء، صوت الشاعر ومن يحيطون به، صوت تجاوب الديكة وتصايح الدجاج، صوت أزيز المرجل يغلي على النار، حركة المتاع الخفيف ينقل من مكان إلى مكان، أصوات النساء يعدن إلى بيوتهن وقد ملأن جرارهن .. إلى آخره. وهذه كلها ليست سوى أصوات، لكنها ترسم صورة مؤثرة جدًّا في ذهن القارئ.

(جـ) الأسس التربوية لتدريس ((الأيام))

السيرة الذاتية كما سبق القول، هى أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه فيسجل أخباره ويستعرض ذكرياته، ويسرد أعماله، وما مر به فى حياته من أحداث تبعا لأهميتها كما يراها، ويشير إلى المحطات التى تركت فى نفسه من الأثر ما يصعب عليه محوه، مستخرجا منها ما انتهى إليه من دروس فى حياته، وما يمكن للقارئ أن يخرج به أيضاً من دروس.

ولئن كانت السيرة الذاتية مظنة الزهو بالنفس وإعلاء قيمة الذات، إلا أن من هذه السير الذاتية ما يمثل قطعة أدبية اجتماعية ثقافية متميزة، لا يليق بمثقف أن يجهلها، وذلك لما لها من موقع خاص فى تراثنا.

ولقد عرف أدبنا الحديث والمعاصر فى مصر نماذج لسير ذاتية صارت من معالم ثقافتنا العربية، مثل أنا «للعقاد » وحياتى «لأحمد أمين » و«إبراهيم الكاتب » للمازنى و«الأيام » لطه حسين وهى التى نحن بصددها. ويتم تدريس هذا الكتاب «الأيام » تربويا تحت اسم «الكتاب ذو الموضوع الواحد ». ولتدريسه أهداف ينبغى أن تتضح فى ذهن معلمى اللغة العربية، وله أساليب تدريسية ينبغى أن يقف عليها، تلافيا لما يشيع من أخطاء فى معالجة مثل هذا الكتاب..

وبداية نتعرف على المقصود بهذا المفهوم حتى نقف على أبعاد التعامل معه.

تكاد تجمع الأدبيات على أن الكتاب ذا الموضوع الواحد يقصد به «ذلك الكتاب الإضافى المقرر على الطلاب للقراءة الموسعة والخروج من مجال القراءة فى موضوع محدود بفكرة إلى ميدان فى القراءة أرحب وأوسع وتعود الاستقلال فى تحصيل المعرفة، وتنمية مهارات التعلم الذاتى والتمكين من تذوق عمل أدبى متكامل، وتلقى فكرة مبسوطة ممتدة تعرض على الطلاب نماذج متكاملة من قطاعات الحياة وصورها.. وهم فى ذلك كله يتزودون بألوان الخبرة والثقافة ويحصلون كسبا لغويا من المفردات

والتراكيب والأساليب، مما ينعكس بدوره على الأداء اللغوى لهم سواء فى مجالاته التعليمية المحدودة، أو مجالات الحياة الواسعة، ويقدم هذا الكتاب متوازيا مع كتاب القراءة ذى الموضوعات المتعددة.

ولقد استندنا فى اختيارنا كتاب «الأيام» لعدد من المعايير، من أهمها تمكين الطالب من:

١. الاتصال بعمل أدبى متميز له سمات أسلوبية فريدة تساعد فى إنماء زاده اللغوى، وتوسع ثقافته الأدبية وترتقى بتذوقه للأدب، وترفع مستوى أدائه فى التعبير شفاهة أم كتابة.
٢. الوقوف على المؤثرات التى تركت فى الأدب العربى الحديث أثراً يصعب محوه، ووسمته بسمات خاصة، ووجهت حركته ردحاً من الزمن غير قصير.
٣. تعرف أنماط الحياة والثقافة التى سادت فى مصر خلال النصف الأول من القرن الماضى، والوقوف على اتجاهات الدراسة فى نظامين تعليميين مختلفين، جامعة الأزهر الشريف والجامعة المصرية.
٤. الاستمتاع بعمل أدبى يشبع حاجاته فى هذه المرحلة من العمر، من حيث نزوعه إلى تمجيد البطولة، وتقدير سير العظماء، وتفتح الأحاسيس نحو الجنس الآخر والرغبة فى الاستقلال وتأكيد الذات والاعتماد على النفس فى تحصيل المعرفة، وغير ذلك من حاجات نفسية تشيع بين طلاب المرحلة الثانوية.
٥. القراءة التذوقية لعمل أدبى يساعد على تنمية الذاتية الثقافية عند الطلاب، وتنمية روح الاعتزاز لديه بالثقافة العربية الإسلامية خاصة فى عصر تسعى ثقافات أخرى لتهميشها.

إضافة إلى ما سبق، حرصت اللجنة على أن يكون من معايير الاختيار مواجهة الفروق الفردية بين طلاب هذه المرحلة فلا يكون العمل الأدبى مبالغاً فى صعوبته فيعجز أمامه الطالب المتوسط، ولا دون المستوى

فيستهين به الطالب نفسه، فضلاً عن تناسب حجمه مع الفترة التعليمية والتعلمية المخصصة للكتاب ذى الموضوع الواحد فى المنهج الدراسى، مما اضطر اللجنة لأن تقتطع من الأجزاء الثلاثة للأيام بعض الفصول، بما يتمشى مع الحجم الأمثل للكتاب ذى الموضوع الواحد، وبما لا يخل بفهم الأحداث أو يقلل من إمكانية التذوق اللغوى والأدبى للكتاب نفسه، وبما يوفر على الطالب وقتاً وجهداً كان يمكن أن يصرفهما فى قراءة تفصيلات كثيرة ومتابعة جزئيات قد تشتت انتباهه أو تصرفه عن جوهر الأحداث.

والمتأمل فى الممارسات الشائعة بين معلمى اللغة العربية عند تدريسهم للكتاب ذى الموضوع الواحد يلحظ عدداً من السلوكيات الخاطئة التى لا تتناسب مع طبيعة هذا النوع من الكتب، ولا تساعد، بل تعوق، تحقيق أهدافه. ولعل هذه مناسبة للإشارة الموجزة لأهم هذه السلوكيات:

١. معالجة الكتاب ذى الموضوع الواحد بنفس الأسلوب الذى يعالج به كتاب القراءة ذى الموضوعات المتعددة. فتقرأ فصوله داخل حجرة الدراسة فصلاً فصلاً، وتناقش مادته بمثل ما تناقش به مادة الكتاب الآخر وتحتل القراءة بنوعيها الصامتة والجهرية، نفس الموقع الذى تحتله فى هذا الكتاب..

٢. إغراق بعض المعلمين فى الحديث عن المؤلف أو شرح الظروف التى ألف فيها الكتاب، أو العناية بالمعجم اللغوى، أو توضيح بعض الجوانب توضيحا يتعارض مع أهداف الكتاب ذى الموضوع الواحد، قصة كانت أم سيرة ذاتية، أم غيرهما مما يحرم الطالب من تذوق العمل الأدبى المتكامل لانشغاله بتفصيلات قد لايضر تجاوزها.

٣. الاعتماد الكلى على المعلم سواء فى تلخيص الكتاب أو مناقشته أوتقويم أداء الطالب فيه بما يحرم هذا الطالب من المشاركة الفعالة فى العملية التعليمية، ويجعله فى موقف المتلقى الذى تفرض عليه وجهات نظر لا رأى له فيها، وتحدد له مهارات للتذوق لا يحيد

عنها، ولا يملك التحرر من أسر المعلم بما لديه من إمكانات قد يتوفر لبعض الطلاب أكثر منها.

٤. اقتصار بعض المعلمين على المعالجة السطحية للكتاب وعدم القدرة على تعميق التناول وتحدى تفكيرالمتعلم واستثارة دافعيته للمشاركة.

فى ضوء ذلك كله نطرح بعض التوجهات لتدريس كتاب «الأيام» بما يساعد على تحقيق أهداف الكتاب ذى الموضوع الواحد ومن أهمها :

١. إشباع رغبة الطالب فى الاستقلال فى تحصيل المعرفة والاتصال بعمل أدبى متكامل يتذوقه مما يعنى إسناد مسئولية القراءة الكاملة للطالب فى بيته، والاقتصار فى الحصة الدراسية على المناقشة التحليلية الناقدة والمتعمقة لأهم ما ورد فى فصول الكتاب من أفكار دون جر المعلم للقراءة التفصيلية للكتاب موزعا على حصص معينة.

٢. الاقتصار فى الحصة الدراسية على مناقشة ما قرأه الطلاب فى البيت والرد على استفساراتهم والوقوف عند الملامح الأسلوبية والبلاغية والأنماط الثقافية التى تستأهل الإشارة والتحرر من المعالجة التقليدية لموضوعات القراءة حتى لا يشعر الطالب أنه مازال أمام كتاب مدرسى مقرر، فيزهد فيه، فينصرف عنه.

٣. تدريب الطالب على تطبيق معايير كتابة السيرة الذاتية، وبيان مدى ما يتوفر منها فى كتاب الأيام بما يساعده على ترجمة المفاهيم النظرية والمعايير المجردة إلى أشياء محسوسة يسهل إدراكها ومن ثم الحكم عليها..

٤. إبراز الجوانب الأسلوبية المميزة للغة طه حسين وتدريب الطالب على تذوقها بل محاكاتها، مما يستلزم من المعلم إعداد أسئلة وتدريبات متنوعة تضمن تنمية التذوق الأدبى لأسلوب طه حسين..

٥. تقديم المعلومات اللازمة المساعدة على فهم الكتاب دون إسراف ممل أو إيجاز مُخِل، والمعيار هنا هو ما يفى بالغرض ويساعد على فهم الكتاب. ولعل مما يتصل بذلك، جعل المعالجة اللغوية حسب

الحاجة إليها. فلا يسرف فى شرح المفردات الصعبة ولا يبخل بتوضيح كلمة أو مفهوم أو مصطلح لا يؤمَن معه اللبس... وينبغى مساعدة الطالب على أن يفهم المعنى من السياق فى ضوء مؤشرات يتدرب عليها.

٦. تدريب الطالب على التفكير الناقد الذى يميز به مواطن الجمال فى الأفكار واللغة فى الكتاب، ويوازن بينه وبين غيره موضحا قيمته العلمية والتربوية وموقعه بالنسبة لغيره فى تراثنا الثقافى.

٧. ترك بعض الفصول دون معالجة تربوية فى الفصل على سبيل النشاط الذاتى الموجَّه بهدف :

أ – تنمية مهارات البحث والاستكشاف وجمع المعلومات والقراءة الذاتية.

ب – تعزيز مهارات البحث والاستكشاف وجمع المعلومات والقراءة الذاتية.

ج – توجيه الطالب لمصادر التعلم المختلفة للاستعانة بها فى القراءة الناقدة للكتاب دون اعتماد مطلَق على المعلم.

٨. جعل القراءة الجهرية محدودة الكم، واضحة الهدف لا تحدث إلا عند الرغبة فى تعميق فكرة محددة أو التثبت من واقعة معينة أو تذوق نص ما.

٩. تنمية القدرة على الإبداع لدى الطلاب إذ تُعَد كتب السيرة الذاتية، والتراجم بشكل عام، من أكثر الكتب القابلة للابتكار سواء فى تخيل المواقف أو وصف الأحداث.

١٠. تصميم أوجه النشاط الصفى واللاصفى التى تساعد على القراءة الجيدة لهذا العمل الأدبى المتميز سواء بتمثيل الأدوار ومسرحة الأحداث أو بالمقارنة بين الأيام ككتاب مطبوع والأيام «كتمثيلية» عرضها التلفاز.. وبذلك تتكامل أشكال الخبرة فى تدريس هذا الكتاب ويثرى بعضها بعضا.

١١. الالتفات بحساسية شديدة للطلاب المتفوقين والموهوبين وتصميم أنشطة إثرائية تنمي إبداعهم وتتناسب مع مهاراتهم، وكذلك الطلاب الضعاف الذين يعجزون بشكل أو بآخر عن متابعة زملائهم وتصميم أنشـــطة علاجية تأخذ بيدهم وبذلك لا يضيع حق الفرد أمام تيار الجماعة.

وبالله التوفيق

أ.د. رشدى أحمد طعيمة

كلية التربية – جامعة المنصورة

كلمة المؤلف (*)

هذا حديث أمليته في بعض أوقات الفراغ لم أكن أريد أن يصدر في كتاب يقرؤه الناس، ولعلّى لم أكن أريد أن أعيد قراءته بعد إملائه وإنما أمليته لأتخلص بإملائه من بعض الهموم الثقال والخواطر المحزنة التى كثيرًا ما تعترى الناس بين حين وحين. وللناس مذاهبهم المختلفة فى التخفف من الهموم والتخلص من الأحزان، فمنهم من يتسلى عنها بالقراءة، ومنهم من يتسلى عنها بالرياضة، ومنهم من يتسلى عنها بالاستماع للموسيقى والغناء، ومنهم من يذهب غير هذه المذاهب كلها لينسى نفسه ويفر من حياته الحاضرة وما تثقله به من الأعباء. ولست أدرى لماذا رجعت ذات يوم إلى ذكريات الصبا، أتحدث بها إلى نفسى لأنسى بهذا الحديث أثقال الشباب، ثم لم أكتف بالتحدث إلى نفسى فيما بينى وبينها، إنما تحدثت إليها حديثًا مسموعاً، فأمليت هذا الكلام على صاحبى فى رحلة من رحلات الصيف، ثم ألقيته جانبا ونسيته أو كدت أنساه.

ثم طلبت إلىّ مجلة الهلال فى عهدها الماضى طائفة من الأحاديث وألحّت فى الطلب حتى لم أجد بدًّا إلى إجابتها ولم أكن أملك الوقت الذى يتيح لى أن أكتب إليها الأحاديث التى أرادتنى عليها. فعرضت هذا الكلام على بعض الصديق ليقرأه ويشير علىّ فيه، أيصلح للنشر أم لا يصلح ؟ فقرأه الصديق وأشار علىّ بألا ألقى إليه بالا. فاعتذرت إلى «الهلال» ولكنها أبت إلا الإلحاح، فدفعت إليها هذا الكلام على كُرهٍ منى، وقد نشرته. فرضى عنه بعض الناس ثم جمعه بعض الأصدقاء فى سِفْر واحد.

وكذلك وُجِد هذا الكتاب على غير إرادة منى لوجوده، وما أكثر ما تحدثت بهذا الحديث إلى الذين قرأوا هذا الكلام، فمنهم من صدّقه ومنهم من أنكر.

---

* كتب الدكتور طه حسين هذه المقدمة بمناسبة صدور طبعة من كتاب الأيام للمكفوفين، وقد رأينا نقلها عن هذه الطبعة لما تحتويه من معان وبيان.

وأنا مع ذلك لم أقل إلا الحق، ومهما يكن من شيء،فقد وجد كتاب الأيام،وأضيف إليه جزء ثان،كتب على نحو ما كتب الجزء الأول وليس أحب إلى نفسي ولا أحسن موقعا في قلبي، من أن يُقَدم هذا الكتاب إلى زملائي وأصدقائي في هذه المحنة،ولا أرى فيها قسوة أو شيئا يشبه القسوة وإنما هي آفة من الآفات الكثيرة التي تعرض لبعض الناس في حياتهم فتؤثر فيها تأثيراً قويا أو ضعيفا. والذين يقرأون هذا الحديث من المكفوفين،سيرون فيه حياة صديق لهم في أيام الصبا تأثر بمحنتهم هذه قليلا قليلا حين عرفها،وهو لم يعرفها إلا شيئا فشيئا حين لاحظ ما بينه وبين إخوته من فرق في تصور الأشياء وممارستها.

وقد تأثر بهذه المحنة تأثرا عميقا قاسيا لا لشيء؛ إلا لأنه أحس من أهله رحمة له وإشفاقا عليه، وأحس من بعض الناس سخرية منه وازدراء له،ولو قد عرف أهله كيف يرعونه دون أن يُظهروا له رحمة أو إشفافا،ولو قد كان الناس من رقي الحضارة وفهم الأشياء على حقائقها بحيث لا يسخرون من الذين تعتريهم بعض الآفات، لا يرثون لهم ولا يظهرون لهم معاملة خاصة يتكلفونها تكلفا، لو قد كان من هذا كله، لعرف ذلك الصبي وأمثاله محنتهم في رفق، ولاستقامت حياتهم بريئة من التعقيد، كما تستقيم لكثير غيرهم من الناس.

والحمد لله على أن هذا الصبي لم يستسلم للحزن ولم تدفعه ظروفه إلى اليأس وإنما مضى في طريقه كما استطاع أن يمضي، محاولا الخير لنفسه وللناس ما أتيح له أن يحاول من الخير. وما أكثر الذين قهروا هذه المحنة خيرا مما قهرها، وانتصروا عليها خيرا مما انتصر عليها،وقدموا لأنفسهم وللناس أكثر وأنفع وأبقى مما قدم، ولكن كل إنسان ميسر لما خُلِق له، لايبذل من الجهد إلا ما تبلغه طاقته.

وأنا أتمنى أن يجد الأصدقاء المكفوفون في قراءة هذا الحديث تسلية لهم عن أثقال الحياة كما وجدت في إملائه، وأن يجدوا فيه بعد ذلك تشجيعاً لهم على أن يستقبلوا الحياة مبتسمين لها كما تبتسم لهم ولغيرهم

من الناس، جادين فيها لينفعوا أنفسهم وينفعوا غيرهم، متغلبين على ما يعترضهم من المصاعب وما يقوم فى سبيلهم من العقبات بالصبر والجهد وحسن الاحتمال وبالأمل المتصل والرجاء الباسم.

فالحياة لم تُمنح لفريق من الناس دون فريق، وحظوظها من اليسر والعسر ومن الشدة واللين ليست مقصورة على المكفوفين وأصحاب الآفات دون غيرهم من الناس، ولو قد عرف الإنسان ما يلقى غيره من المصاعب وما يشقى به غيره من مشكلات الحياة، لهانت عليه الخطوب التى تعترضه ولعرف أن حظه خير من حظوظ كثير من الناس وأنه فى عافية مما يُمتحن به غيره من الأشقياء والبائسين على ما أُتيح لهم من الصحة الموفورة ومن تمام الآلة واعتدال المزاج واستقامة الملكات.

والمهم هو أن يلقى الإنسان حياته باسما لها لا عابسا، وجادا فيها لا لاعبا وأن يحمل نصيبه من أثقالها ويؤدى نصيبه من واجباتها، ويحب للناس مثلما يحب لنفسه ويؤثر الناس بما يؤثر به نفسه من الخير، ولاعليه بعد ذلك أن تثقل الحياة أو تخف وأن يرضى الناس أو يسخطوا، فنحن لم نُخلق عبثاً ولم نُترك سدى ولم نُكلَّف إرضاء الناس عنا، وإنما خُلقنا لنؤدى واجباتنا وليس لنا بُد من تأديتها، فإن لم نفعل فنحن وحدنا الملومون وعلينا وحدنا تقع التبعات.

١٥ ديسمبر ١٩٥٤

الأيام

الجزء الأول

١ـ خيالات الطفولة

لا يذكر لهذا اليوم اسماً، ولا يستطيع أن يضعه حيث وضعه الله من الشهر والسنة، بل لا يستطيع أن يذكر من هذا اليوم وقتاً بعينه، وإنما يقرّب ذلك تقريباً.

وأكبر ظنه أن هذا الوقت كان يقع من ذلك اليوم فى فجره أو فى عشائه، يرجح ذلك؛ لأنه يذكر أن وجهه تلقى فى ذلك الوقت هواء فيه شيء من البرد الخفيف الذى لم تذهب به حرارة الشمس، ويرجح ذلك، لأنه على جهله حقيقة النور والظلمة، يكاد يذكر أنه تلقى حين خرج من البيت نوراً هادئاً خفيفاً لطيفاً كأن الظلمة تغشى بعض حواشيه، ثم يرجح ذلك؛ لأنه يكاد يذكر أنه حين تلقى هذا الهواء وهذا الضياء لم يأنس من حوله حركة يقظة قوية، وإنما آنس حركة مستيقظة من نوم أم مقبلة عليه.

وإذا كان قد بقى له من هذا الوقت ذكرى واضحة بيِّنة لا سبيل إلى الشك فيها، فإنما هى ذكرى هذا السياج الذى كان يقوم أمامه من القصب، والذى لم يكن بينه وبين باب الدار إلا خطوات قصار. هو يذكر هذا السياج كأنه رآه أمس. يذكر أن قصب هذا السياج كان أطول من قامته فكان من العسير عليه أن يتخطاه إلى ما وراءه. ويذكر أن قصب هذا السياج كان مقترباً كأنما كان متلاصقاً، فلم يكن يستطيع أن ينسل فى ثناياه. ويذكر أن قصب هذا السياج كان يمتد عن شماله إلى حيث لا يعلم له نهاية، وكان يمتد عن يمينه إلى آخر الدنيا من هذه الناحية، وكان آخر الدنيا من هذه الناحية قريباً، فقد كانت تنتهى إلى قناة عرفها حين تقدمت به السن، وكان لها فى حياته- أو قل فى خياله- تأثير عظيم.

يذكر هذا كله، ويذكر أنه كان يحسد الأرانب التى كانت تخرج من الدار كما يخرج منها، وتتخطى السياج وثباً من فوقه، أو انسيابًا بين قصبه، إلى حيث تقرض ما كان وراءه من نبت أخضر، يذكر منه الكرنب خاصة.

ثم يذكر أنه كان يحب الخروج من الدار إذا غربت الشمس وتعشّى الناس، فيعتمد[1] على قصب هذا السياج، مفكراً مغرقاً في التفكير، حتى يردّه إلى ما حوله صوت الشاعر قد جلس على مسافة من شماله، والتف حوله الناس، وأخذ ينشدهم في نغمة عذبة غريبة أخبار أبي زيد وخليفة ودياب، وهم سكوت إلا حين يستخفهم الطرب أو تستفزهم الشهوة؛ فيستعيدون ويتمارون ويختصمون؛ ويسكت الشاعر حتى يفرغوا من لغطهم بعد وقت قصير أو طويل، ثم يستأنف إنشاده العذب بنغمته التي لا تكاد تتغير.

ثم يذكر أنه كان لا يخرج ليلة إلى موقفه من السياج إلا وفي نفسه حسرة لاذعة لأنه كان يُقدِّر أن سيُقطَعُ عليه استماعه لنشيد الشاعر حين تدعوه أخته إلى الدخول فيأبى فتخرج فتشده من ثوبه فيمتنع عليها، فتحمله بين ذراعيها كأنه الثُّمامة[2]، وتعدو به إلى حيث تنيمه على الأرض وتضع رأسه على فخذ أمه، ثم تعمد هذه إلى عينيه المظلمتين فتفتحهما واحدة بعد الأخرى، وتقطر فيهما سائلاً يؤذيه ولا يجدي عليه خيرًا، وهو يألم ولكنه لا يشكو ولا يبكي لأنه كان يكره أن يكون كأخته الصغيرة بكّاءً شكّاءً[3].

ثم يُنقل إلى زاوية في حجرة صغيرة، فتنيمه أخته على حصير قد بسط عليها لحاف، وتلقي عليه لحافًا آخر، وتذره[4] وإنَّ في نفسه لحسرات، وإنه ليمد سمعه مدًّا يكاد يخترق به الحائط لعله يستطيع أن يصله بهذه النغمات الحلوة التي يرددها الشاعر في الهواء الطلق تحت السماء؛ ثم يأخذه النوم، فما يحس إلا وقد استيقظ والناس نيام، ومن حوله إخوته وأخواته يغطون فيسرفون في الغطيط، فيلقي اللحاف عن وجهه في خيفة وتردد، لأنه كان يكره أن ينام مكشوف الوجه. وكان

---

(١) يستند.

(٢) عشب شبيه بالخوص يسمو إلى مائة وخمسين سنتيمترا، والجمع الثمام، والمراد خفة وزنه.

(٣) كثير الشكوى.

(٤) تتركه.

واثقًا أنه إن كشف وجهه أثناء الليل أو أخرج أحد أطرافه من اللحاف، فلابد من أن يعبث به عفريت من العفاريت الكثيرة التى كانت تعمر أقطار البيت وتملأ أرجاءه ونواحيه، والتى كانت تهبط تحت الأرض ما أضاءت الشمس واضطرب الناس. فإذا أوت الشمس إلى كهفها، والناس إلى مضاجعهم، وأطفئت السُّرُج[1]، وهدأت الأصوات، صعدت هذه العفاريت من تحت الأرض وملأت الفضاء حركة واضطرابًا وتهامسًا وصياحًا.

وكان كثيراً ما يستيقظ فيسمع تجاوب الديكة وتصايح الدجاج، ويجتهد فى أن يميز بين هذه الأصوات المختلفة، فأما بعضها فكانت أصوات ديكة حقًا، وأما بعضها الآخر فكانت أصوات عفاريت تتشكل بأشكال الديكة وتقلدها عبثًا وكيدًا.

ولم يكن يحفل[2] بهذه الأصوات ولا يهابها، لأنها كانت تصل إليه من بعيد، إنما كان يخاف الخوف كله أصواتاً أخرى لم يكن يتبينها إلا بمشقة وجهد، كانت تنبعث من زوايا الحجرة نحيفة ضئيلة، يمثل بعضها أزيز المرجل يغلى على النار، ويمثل بعضها الآخر حركة متاع خفيف ينقل من مكان إلى مكان، ويمثل بعضها خشباً ينقصم أو عوداً ينحطم.

وكان يخاف أشد الخوف أشخاصاً يتمثلها قد وقفت على باب الحجرة فسدته سدًّا. وأخذت تأتى بحركات مختلفة أشبه شيء بحركات المتصوفة فى حلقات الذكر. وكان يعتقد أن ليس له حصن من كل هذه الأشباح المخوفة والأصوات المنكرة، إلا أن يلتف فى لحافه من الرأس إلى القدم، دون أن يدع بينه وبين الهواء منفذًا أو ثغرة. وكان واثقًا أنه إن ترك ثغرة فى لحافه فلابد من أن تمتد منها يد عفريت إلى جسمه فتناله بالغمز والعبث.

لذلك كان يقضى ليله خائفًا مضطربًا؛ إلا حين يغلبه النوم، وما كان يغلبه النوم إلا قليلاً. كان يستيقظ مبكرًا أو قل كان يستيقظ فى السحر، ويقضى شطرًا طويلاً من الليل فى هذه الأهوال والأوجال والخوف

---

(١) المصابيح.

(٢) يهتم.

من العفاريت، حتى إذا وصلت إلى سمعه أصوات النساء يعدن إلى بيوتهن وقد ملأن جرارهن من القناة وهن يتغنين «الله يا ليل الله.........» عرف أن قد بزغ الفجر، وأن قد هبطت العفاريت إلى مستقرها من الأرض السفلى، فاستحال هو عفريتًا، وأخذ يتحدث إلى نفسه بصوت عال، ويتغنى بما حفظ من نشيد الشاعر، ويغمز من حوله من إخوته وأخواته، حتى يوقظهم واحدًا واحدًا. فإذا تم له ذلك، فهناك الصياح والغناء، وهناك الضجيج والعجيج، وهناك الضوضاء التي لم يكن يضع لها حدا إلا نهوض الشيخ من سريره، ودعاؤه بالإبريق ليتوضأ.

حينئذ تخفت الأصوات وتهدأ الحركة، حتى يتوضأ الشيخ ويصلى ويقرأ ورده ويشرب قهوته ويمضى إلى عمله. فإذا أغلق الباب من دونه نهضت الجماعة كلها من الفراش، وانسابت فى البيت صائحة لاعبة حتى تختلط بما فى البيت من طير وماشية.

المناقشة

١. وصف الكاتب سياج الدار بصفات عديدة، و ارتبط فى مُخَيِّلته بذكريات متنوعة. وضِّح ذلك.
٢. لماذا كان الكاتب يكره فى طفولته أن ينامَ مكشوف الوجه؟
٣. ما المخاوفُ التى كانت تُحدِق بالطفلِ ليلاً ؟
٤. كيف كان الطفل يستدِلُّ على بزوغِ الفجرِ؟
٥. استخلص ملامح شخصية الكاتب فى طفولته كما صوَّرَها فى هذا الفصل.

٢ـ ذاكرة صبى

كان مطمئنا إلى أن الدنيا تنتهى عن يمينه بهذه القناة التى لم يكن بينه وبينها إلا خطوات معدودة..... ولم لا ؟ وهو لم يكن يرى عرض هذه القناة، ولم يكن يُقدِّر أن هذا العرض ضئيل بحيث يستطيع الشاب النشيط أن يثب من إحدى الحافتين فيبلغ الأخرى، ولم يكن يقدر أن حياة الناس والحيوان والنبات تتصل من وراء هذه القناة على نحو ما هى من دونها، ولم يكن يقدر أن الرجل يستطيع أن يعبر هذه القناة ممتلئة دون أن يبلغ الماء إبطيه، ولم يكن يقدر أن الماء ينقطع من حين إلى حين عن هذه القناة، فإذا هى حفرة مستطيلة يعبث فيها الصبيان، ويبحثون فى أرضها الرخوة عما تخلف من صغار السمك فمات لانقطاع الماء عنه.

لم يكن يُقدِّر هذا كله، وإنما كان يعلم يقينًا لا يخالطه الظن أن هذه القناة عالم آخر مستقل عن العالم الذى كان يعيش فيه، تعمره كائنات غريبة مختلفة لا تكاد تحصى؛ منها التماسيح التى تزدرد الناس ازدراداً، ومنها المسحورون الذين يعيشون تحت الماء بياض النهار وسواد الليل، حتى إذا أشرقت الشمس أو غربت طفوا يتنسمون الهواء، وهم حين يطفون خطرٌ على الأطفال وفتنة للرجال والنساء. ومنها هذه الأسماك الطوال العراض التى لا تكاد تظفر بطفل حتى تزدرده ازدراداً، والتى قد يتاح لبعض الأطفال أن يظفروا فى بطونها بخاتم الملك، ذلك الخاتم الذى لايكاد الإنسان يديره فى إصبعه حتى يسعى إليه دون لمح البصر خادمان من الجن يقضيان له ما يشاء، ذلك الخاتم الذى كان يتختمه سليمان فيسخر له الجن والريح وما يشاء من قوى الطبيعة.

وما كان أحب إليه أن يهبط فى هذه القناة لعل سمكة من هذه الأسماك تزدرده فيظفر فى بطنها بهذا الخاتم، فقد كانت حاجته إليه شديدة..... ألم يكن يطمع على أقل تقدير فى أن يحمله أحد هذين الخادمين إلى ما وراء هذه القناة ليرى بعض ما هناك من الأعاجيب ؟ ولكنه كان يخشى كثيراً من الأهوال قبل أن يصل إلى هذه السمكة المباركة.

على أنه لم يكن يستطيع أن يبلو من شاطئ هذه القناة مسافة بعيدة، فقد كان الشاطئ محفوفاً[1] عن يمينه وعن شماله بالخطر.

فأما عن يمينه فقد كان هناك العدويون، وهم قوم من الصعيد يقيمون فى دار لهم كبيرة، يقوم على بابها أبداً كلبان عظيمان لاينقطع نباحهما، ولا تنقطع أحاديث الناس عنهما، ولا ينجو المار منهما إلا بعد عناء ومشقة. وأما عن شماله فقد كانت هناك خيام يقيم فيها « سعيد الأعرابى » الذى كان الناس يتحدثون بشرهِ ومكره وحرصه على سفْك الدماء، وامرأته «كوابس » التى كانت قد اتخذت فى أنفها حلقة من الذهب كبيرة، والتى كانت تختلف إلى الدار، وتقبل صاحبنا من حين إلى حين فيؤذيه خزامها ويروعه. وكان أخوف الأشياء إليه أن يتقدم عن يمينه فيتعرض لكلبى العدويين، أو يتقدم عن شماله فيتعرض لشر «سعيد » وامرأته«كوابس »

على أنه كان يجد فى هذه الدنيا الضيقة القصيرة المحدودة من كل ناحية ضروباً من اللهو والعبث تملأ نهاره كله.

ولكن ذاكرة الأطفال غريبة، أو قل إن ذاكرة الإنسان غريبة حين تحاول استعراض حوادث الطفولة، فهى تتمثل بعض هذه الحوادث واضحاً جليًا كأن لم يمض بينها وبينه من الوقت شيء، ثم يمَّحى منها بعضها الآخر كأن لم يكن بينها وبينه عهد.

يذكر صاحبنا السياج والمزرعة التى كانت تنبسط من ورائه، والقناة التى كانت تنتهى إليها الدنيا، و «سعيداً » و «كوابس » وكلاب العدويين، ولكنه يحاول أن يتذكر مصير هذا كله فلا يظفر من ذلك بشيء. وكأنه قد نام ذات ليلة ثم أفاق من نومه فلم ير سياجاً ولا مزرعة ولا سعيداً ولا كوابس، وإنما رأى مكان السياج والمزرعة بيوتاً قائمة وشوارع منظمة، تنحدر كلها من جسر القناة ممتدة امتداداً قصيراً من الشمال إلى الجنوب، وهو يذكر كثيراً من الذين كانوا يسكنون هذه البيوت رجالاً ونساءً، ومن الأطفال الذين كانوا يعبثون فى هذه الشوارع.

---

(١) محوطا.

وهو يذكر أنه كان يستطيع أن يتقدم يميناً وشمالاً على شاطئ القناة دون أن يخشى كلاب العدوبين أو مكر سعيد وامرأته، وهو يذكر أنه كان يقضى ساعات من نهاره على شاطئ القناة سعيداً مبتهجاً بما سمع من نغمات «حسن» الشاعر يتغنى بشعره فى أبى زيد وخليفة ودياب، حين يرفع الماء بشادوفه ليسقى به زرعه على الشاطئ الآخر للقناة. وهو يذكر أنه استطاع غير مرة أن يعبر هذه القناة على كتف أحد إخوته دون أن يحتاج إلى خاتم الملك، وأنه ذهب غير مرة إلى حيث كانت تقوم وراء القناة شجرات من التوت فأكل من توتها ثمرات لذيذة. وهو يذكر أنه تقدم غير مرة عن يمينه على شاطئ القناة حتى وصل إلى حديقة المعلم وأكل فيها غير مرة تفاحاً، وقُطِف له فيها غير مرة نعناع وريحان، ولكنه عاجز كل العجز أن يتذكر كيف استحالت الحال وتغير وجه الأرض من طوره الأول إلى هذا الطور الجديد.

المناقشة

١. وازن بينَ صورتى «القناة» كما رسمتها مُخيِّلة طفولة الكاتب، و كما عَرَفَ حقيقتها فيما بعد.

٢. لماذا كان الكاتبُ فى طفولته يتمنى أن ينزِلَ القناة ؟

٣. كان شاطئُ القناةِ محفوفا بالخطرِ. وضِّح ذلك.

٤. وصَفَ الطفل حياته بأنها كانت ضيِّقَةً قصيرةً محدودة. علِّل لذلك.

٥. عبَّرَ الكاتبُ عن تعجُّبِهِ من ذاكرةِ الطفولة، فما وجهُ الغرابةِ فيها ؟

٦. كيف أمكن للطفلِ أن يعبُرَ القناةَ مراتٍ ؟ و ماذا فَعَلَ عندما عبرها ؟

٣ـ أسـرتى

كان سابع ثلاثة عشر من أبناء أبيه، وخامس أحد عشر من أشقته. وكان يشعر بأن له بين هذا العدد الضخم من الشباب والأطفال مكاناً خاصًّا يمتاز من مكان إخوته وأخواته. أكان هذا المكان يرضيه ؟ أكان يؤذيه ؟ الحق أنه لا يتبين ذلك إلا فى غموض وإبهام، والحق أنه لا يستطيع الآن أن يحكم فى ذلك حكمًا صادقاً. كان يحس من أمه رحمة ورأفة، وكان يجد من أبيه لينًا ورفقاً، وكان يشعر من إخوته بشيء من الاحتياط فى تحدثهم إليه ومعاملتهم له. ولكنه كان يجد إلى جانب هذه الرحمة والرأفة من جانب أمه شيئاً من الإهمال أحيانـًا، ومن الغلظة أحيانًا أخرى، وكان يجد إلى جانب هذا اللين والرفق من أبيه شيئـًا من الإهمال أيضًا، والازورار[1] من وقت إلى وقت. وكان احتياط إخوته وأخواته يؤذيه؛ لأنه كان يجد فيه شيئًا من الإشفاق مشوبًا بشيء من الازدراء[2].

على أنه لم يلبث أن تبين سبب هذا كله، فقد أحس أن لغيره من الناس عليه فضلاً، وأن إخوته و أخواته يستطيعون ما لا يستطيع، وينهضون من الأمر لما لا ينهض له. وأحس أن أمه تأذن لإخوته وأخواته فى أشياء تحظرها عليه، وكان ذلك يُحْفِظه. ولكن لم تلبث هذه الحفيظة أن استحالت إلى حزن صامت عميق، ذلك أنه سمع إخوته يصفون ما لا علم له به، فعلم أنهم يرون ما لا يرى.

المناقشة

١. بم وصَفَ الكاتبُ المكانةَ التى كان يحظى بها فى طفولتِهِ بينَ أبناءِ أسرتِه ؟

٢. استنتج سببَ ما كان يلقاه الطفلُ من إهمالٍ أحياناً من والديه.

٣. لماذا كانت الأمُّ تحظُر على الطفل أشياءَ تأذَنُ فيها لإخوتِه ؟

٤. هل كان الطفلُ راضيا عن منزلتِهِ بين أفرادِ أسرَتِهِ ؟ و لماذا ؟

---

(١) الابتعاد.

(٢) الاحتقار.

٤ـ مرارة الفشل

أصبح صبينا شيخًا وإن لم يتجاوز التاسعة؛ لأنه حفظ القرآن، ومن حفظ القرآن فهو شيخ مهما تكن سنه. دعاه أبوه شيخًا، ودعته أمه شيخًا، وتعوَّد سيدنا أن يدعوه شيخًا أمام أبويه، أو حين يرضى عنه، أو حين يريد أن يترضاه لأمر من الأمور. فأما فيما عدا ذلك فقد كان يدعوه باسمه، وربما دعاه «بالواد». وكان شيخنا الصبى قصيرًا نحيفًا شاحبًا زرىّ الهيئة على نحو ما، ليس له من وقار الشيوخ ولا من حسن طلعتهم حظ قليل أو كثير. وكان أبواه يكتفيان من تمجيده وتكبيره بهذا اللفظ الذى أضافاه إلى اسمه كبرًا منهما وعجبًا لاتلطفًا به ولا تحببًا إليه. أما هو فقد أعجبه هذا اللفظ فى أول الأمر، ولكنه كان ينتظر شيئًا آخر من مظاهر المكافأة والتشجيع. كان ينتظر أن يكون شيخًا حقًّا فيتخذ العمة ويلبس الجبة والقفطان، وكان من العسير إقناعه بأنه أصغر من أن يحمل العمة ومن أن يدخل فى القفطان.. وكيف السبيل إلى إقناعه بذلك.

على أنه فى حقيقة الأمر لم يكن خليقًا أن يدعى شيخًا، وإنما كان خليقًا رغم حفظه للقرآن أن يذهب إلى الكتاب كما كان يذهب مهمل الهيئة، على رأسه طاقيته التى تنظف يومًا فى الأسبوع.

ومضى على هذا شهر وشهر وشهر. يذهب صاحبنا إلى الكتاب ويعود منه فى غير عمل، وهو واثق بأنه قد حفظ القرآن، وسيدنا مطمئن إلى أنه حفظ القرآن إلى أن كان اليوم المشئوم....كان هذا اليوم مشئومًا حقًّا، ذاق فيه صاحبنا لأول مرة مرارة الخزى والذلة والضعة وكره الحياة. عاد من الكتاب عصر ذلك اليوم مطمئنا راضيًا، ولم يكد يدخل الدار حتى دعاه أبوه بلقب الشيخ، فأقبل عليه ومعه صديقان له. فتلقاه أبوه مبتهجًا وأجلسه فى رفق، وسأله أسئلة عادية، ثم طلب إليه أن يقرأ «سورة الشعراء». وما هى إلا أن وقع عليه هذا السؤال وقع الصاعقة ففكر وقدر، وتحفز واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وسمى بسم الله الرحمن الرحيم.

ولكنه لم يذكر من سورة الشعراء إلا أنها إحدى سور ثلاث، أولها «طسم » فأخذ يردد «طسم » مرة ومرة ومرة، دون أن يستطيع الانتقال إلى ما بعدها وفتح عليه أبوه بما يلى هذه الكلمة من سورة الشعراء،فلم يستطع أن يتقدم خطوة. قال أبوه: فاقرأ سورة «النمل » فذكر أن أول سورة النمل، كأول سورة الشعراء (طس)، و أخذ يردد هذا اللفظ، وفتح عليه أبوه، فلم يستطع أن يتقدم خطوة أخرى..... قال أبوه: فاقرأ سورة القصص، فذكر أنها الثالثة، وأخذ يردد (طسم) ولم يفتح عليه أبوه هذه المرة، ولكنه قال له فى هدوء: قم، فقد كنت أحسب أنك حفظت القرآن. قام خجلا يتصبَّب عرقا، وأخذ الرجلان يعتذران عنه بالخجل وصغر السن، ولكنه مضى لا يدرى أيلوم نفسه لأنه نسى القرآن، أم يلوم سيدنا لأنه أهمله، أم يلوم أباه لأنه امتحنه ؟

المناقشة

١. ما المكافأة التى نالها الصبى على ختمه القرآن ؟
٢. لم ذكر الصبى أنه لم يكن خليقا بلقب شيخ ؟
٣. لخص الموقف الذى جمع بين الصبى وأبيه فى هذا الفصل.

٥-الشيخ الصغير

أقبل سيدنا إلى الكتّاب مسروراً مبتهجاً، فدعا الشيخ الصبى بلقب الشيخ هذه المرة قائلاً: أمّا اليوم، فأنت تستحق أن تُدْعَى شيخًا، فقد رفعت رأسى وبيضت وجهى وَشَّرفت لحيتى أمس، واضطر أبوك إلى أن يعطينى الجبّة. ولقد كنت تتلو القرآن أمس كسلاسل الذهب، وكنتُ على النار مخافة أن تزل أو تنحرف، وكنت أحصنك بالحى القيوم الذى لا ينام؛ حتى انتهى هذا الامتحان. وأنا أعفيك اليوم من القراءة، ولكن أريد أن آخذ عليك عهدًا، فعدنى بأن تكون وفيًّا. قال الصبى فى استحياء: لك علىّ الوفاء. قال سيدنا: فأعطنى يدك. وأخذ بيد الصبى. فما راع الصبى إلا شيء فى يده غريب، ما أحس مثله قط، عريض يترجرج، ملؤه شعر تغور فيه الأصابع، ذلك أن سيدنا قد وضع يد الصبى على لحيته وقال: هذه لحيتى أسلمك إيّاها، وأريد ألا تهينها، فقل: «والله العظيم» ثلاثاً «وحق القرآن المجيد لا أهينها» وأقسم الصبى كما أراد سيدنا. حتى إذا فرغ من قسمه؛ قال له سيدنا: كم فى القرآن من جزء ؟: قال: ثلاثون. قال سيدنا: وكم نشتغل فى الكتّاب من يوم ؟ قال الصبى: خمسة أيام. قال سيدنا: فإذا أردت أن تقرأ القرآن مرة فى كل أسبوع، فكم تقرأ من جزء كل يوم ؟ فكر الصبى قليلاً ثم قال: ستة أجزاء. قال سيدنا: فتقسم لتتلُوَنَّ على العريف ستة أجزاء من القرآن فى كل يوم من أيام العمل، ولتكوننَّ هذه التلاوة أول ما تأتى به حين تصل إلى الكتّاب. فإذا فرغت منها فلاجناح[1] عليك أن تلهو وتلعب، على ألا تصرف الصبيان عن أعمالهم.. أعطى الصبى على نفسه هذا العهد. ودعا سيدنا العريف فأخذ عليه عهداً مثله، ليسمعنَّ للصبى فى كل يوم ستة أجزاء من القرآن، وأودعه شرفه، وكرامة لحيته، ومكانة الكُتّاب فى البلد، وقبل العريف الوديعة. وانتهى هذا المنظر وصبيان الكُتّاب ينظرون ويعجبون.

---

(١) إثم، ذنب.

المناقشة

١. لماذا أقبل «سيِّدُنا» من الغدِ إلى الكُتَّابِ مسروراً مُبتَهجاً ؟

٢. المقصود بقول «سيِّدِنا» للصبى: «لقد كنت بالأمسِ تتلو القرآنَ كسلاسِلِ الذَّهَبِ»

أ) أنَّه أجاد الحِفظَ.

ب) أنَّه أجاد التلاوة.

ت) أنَّه أجاد الحِفظَ و التلاوة.

٣. ما العهدُ الذى أخذَهُ «سيدنا» على الصبى ؟

٤. كم جزءًا من القرآن كان على العريف أن يُسمِّعَها للصبى كل يوم ؟

٥. فى ضوء الأحداث السابقةِ للقصة هل تتوقع أن يفى الصبى بعهدِ «سيدنا» ؟

٦. مم كان صبيانُ الكُتَّابِ يعجبون ؟

.....

٦ـ سعادة لا تدوم

انقطع الصبى عن الكُتّاب، لأن فقيهًا آخر يختلف إلى البيت فى كل يوم؛ فيتلو فيه سورة من القرآن مكان سيدنا. ويُقرئ الصبى ساعة أو ساعتين. وظل الصبى حرًّا يعبث ويلعب فى البيت متى انصرف عنه الفقيه الجديد. حتى إذا كان العصر أقبل عليه أصحابه ورفاقه منصرفهم من الكتّاب، فيقصون عليه ما كان فى الكتّاب، وهو يلهو بذلك، ويعبث بهم وبكتابهم وبسيدنا وبالعريف. وكان قد خيل إليه أن الأمر قد انبتّ[1] بينه وبين الكتّاب ومن فيه، فلن يعود إليه، ولن يرى الفقيه ولا العريف. فأطلق لسانه فى الرجلين إطلاقًا شنيعًا، وأخذ يظهر من عيوبهما وسيئاتهما ما كان يخفيه، وما له لا يطلق لسانه فى الرجلين، وليس بينه وبين السفر إلى القاهرة إلا شهر واحد ؟ فسيعود أخوه الأزهرى من القاهرة بعد أيام؛ حتى إذا قضى إجازته اصطحبه إلى الأزهر، حيث يصبح مجاورًا، وحيث تنقطع عنه أخبار الفقيه والعريف.

الحق أنه كان سعيدًا فى هذه الأيام؛ كان يشعر بشيء من التفوق على رفاقه وأترابه، فهو لا يذهب إلى الكُتّاب كما يذهبون، وإنما يسعى إليه الفقيه سعيًا. وسيسافر إلى القاهرة حيث الأزهر، وحيث «سيدنا الحسين» وحيث «السيدة زينب» وغيرهما من الأولياء. وما كانت القاهرة عنده شيئًا آخر، إنما كانت مستقر الأزهر، ومشاهد الأولياء والصالحين.

ولكن هذه السعادة لم تدم إلا ريثما يعقبها شقاء شنيع؛ ذلك أن سيدنا لم يطق صبراً على هذه القطيعة، ولم يستطع أن يحتمل انتصار الشيخ عبد الجواد عليه، فأخذ يتوسل بفلان وفلان إلى الشيخ. وما هى إلا أن لانت قناة الشيخ، وأمر الصبى بالعودة إلى الكتّاب متى أصبح. عاد كارهًا مقدرًا ما سيلقاه من سيدنا.وهو يقرئه القرآن للمرة الثالثة، ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فقد كان الصبيان ينقلون إلى الفقيه والعريف

---

(١) انقطع = انفصل.

كل ما يسمعون من صاحبهم. ولله أوقات الغداء طول هذا الأسبوع! وما كان سيدنا ينال به الصبى من لوم! وما كان العريف يعيد عليه من ألفاظه؛ تلك التى كان يطلق بها لسانه مقدراً أنه لن يرى الرجلين.!

فى هذا الأسبوع تعلم الصبى الاحتياط فى اللفظ، وتعلم أن من الخَطَل [1] والحمق، الاطمئنانَ إلى وعيد الرجال، وما يأخذون أنفسهم به من عهد. ألم يكن الشيخ قد أقسم ألا يعود الصبى إلى الكُتَّاب أبدًا ؟ وها هو ذا قد عاد. وأى فرق بين الشيخ يقسم ويحنث! وبين سيدنا يرسل الطلاق والأيمان إرسالاً، وهو يعلم أنَّه كاذب ؟ وهؤلاء الصبيان يتحدثون إليه، فيشتمون له الفقيه والعريف، ويغرونه بشتمهما، حتى إذا ظفروا منه بذلك، تقربوا به إلى الرجلين وابتغوا به إليهما الوسيلة. وهذه أمه تضحك منه، وتغرى به سيدنا حين أقبل يتحدث إليها بما نقل إليه الصبيان وهؤلاء إخوته يشمتون به،ويعيدون عليه مقالة سيدنا من حين إلى حين، يغيظونه ويثيرون سخطه. ولكنه كان يحتمل هذا كله فى صبر وجلد. وما له لا يصبر ولا يتجلد، وليس بينه وبين فراق هذه البيئة كلها، إلا شهر أو بعض شهر!

---

(١) الفساد والسفه.

المناقشة

١. ماذا فعل الصبى حينما أيقنَ بأنَّهُ لن يعودَ إلى الكُتَّابِ ؟

٢. «وكان قد خُيِّلَ إليهِ أنَّ الأمر قد انبتَّ بينَهُ و بينَ الكُتَّابِ، فلن يرى الفقيهَ و لا العريفَ، فأطلق لِسانَهُ فى الرجلين». المراد بقوله: «أطلق لسانَهُ فى الرجلين» :

أ) بالغ فى الثناء عليهما.

ب) أظهر من عيوبهما و سيئاتهما ما كان يُخفِيه.

ت) أذاعَ الأسرار التى ائتمناه عليها.

٣. «ألم يكن الشيخ قد أقسم ألا يعود الصبى إلى الكتاب أبدا، و ها هو ذا قد عاد». تعلَّمَ الصبى من هذا دروساً عِدَّةً، فما تلك الدروسُ؟

٤. ماذا نال الصبى من «سيِّدِنا» حينما أقرأه القرآن للمرَّة الثالثة ؟

٥. كان الصبى يحتمِلُ ما يَلقَى بعد عودته إلى الكتاب فى صبرٍ و جَلَدٍ. ما الذى حَمَلَهُ على هذا الصبرِ و الجَلَدِ ؟

.....

٧ـ الاستعداد للأزهر

ولكن الشهر مضى، ورجع الأزهرى إلى القاهرة، وظل صاحبنا حيث هو كما هو، لم يسافر إلى الأزهر، ولم يتخذ العِمَّة، ولم يدخل فى جُبَّة أو قفطان.

كان لا يزال صغيرًا، ولم يكن من اليسير إرساله إلى القاهرة، ولم يكن أخوه يحب أن يحتمله، فأشار بأن يبقى حيث هو سنة أخرى، فبقى ولم يحفل أحد برضاه أو غضبه.

على أن حياته تغيرت بعض الشيء، فقد أشار أخوه الأزهرى بأن يقضى هذه السنة فى الاستعداد للأزهر، ودفع إليه كتابين يحفظ أحدهما جملة، ويستظهر من الآخر صحفاً مختلفة.

فأما الكتاب الذى لم يكن بدّ من حفظه كله فألفية ابن مالك. وأما الكتاب الآخر فمجموع المتون. وأوصى الأزهرى قبل سفره بأن يبدأ بحفظ الألفية، حتى إذا فرغ منها وأتقنها إتقاناً، حفظ من الكتاب الآخر أشياء غريبة، بعضها يسمى الجوهرة، وبعضها يسمى الخريدة، وبعضها يسمى السراجية، وبعضها يسمى الرَّحَبيّة، وبعضها يسمى لاميّة الأفعال. وكانت هذه الأسماء تقع من نفس الصبى مواقع تِيه[1] وإعجاب، لأنه لا يفهم لها معنى لأنه يقدر أنها تدل على العلم، ولأنه يعلم أن أخاه الأزهرى قد حفظها وفهمها فأصبح عالما وظفر بهذه المكانة الممتازة فى نفس أبويه وإخوته وأهل القرية جميعًا. ألم يكونوا جميعًا يتحدثون بعودته قبل أن يعود بشهر، حتى إذا جاء أقبلوا إليه فرحين مبتهجين متلطفين ؟ ألم يكن الشيخ يشرب كلامه شرباً، ويعيده على الناس فى إعجاب وفخار؟ ألم يكن أهل القرية يتوسلون إليه أن يقرأ لهم درساً فى التوحيد أو الفقه ؟ وماذا

---

(١) زهو.

عسى أن يكون التوحيد ؟ وماذا عسى أن يكون الفقه ؟ ثم ألم يكن الشيخ يتوسل إليه، ملحًّا مستعطفاً مسرفاً في الوعد، باذلاً ما استطاع وما لم يستطع من الأماني، ليلقى على الناس خطبة الجمعة ؟ ثم هذا اليوم المشهود يوم مولد النبي. ماذا لقى الأزهرى من إكرام وحفاوة، ومن تجلة[1] وإكبار ؟ كانوا قد اشتروا له قفطاناً جديداً، وجبة جديدة، وطربوشاً جديداً، و «مركوباً» جديداً. وكانوا يتحدثون بهذا اليوم وما سيكون منه قبل أن يظلهم بأيام. حتى إذا أقبل هذا اليوم وانتصف، أسرعت الأسرة إلى طعامها فلم تصب منه إلا قليلاً ولبس الفتى الأزهرى ثيابه الجديدة، واتخذ في هذا اليوم عمامة خضراء، وألقى على كتفيه شالاً من الكشمير، وأمه تدعو وتتلو التعاويذ، وأبوه يخرج ويدخل جذلان مضطرباً. حتى إذا تم للفتى من زيه وهيئته ما كان يريد، خرج فإذا فرس ينتظره بالباب، وإذا رجال يحملونه فيضعونه على السرج، وإذا قوم يكتنفونه من يمين ومن شمال وآخرون يسعون بين يديه، وآخرون يمشُون من خلفه وإذا البنادق تطلق في الفضاء، وإذا النساء يزغردن من كل ناحية، وإذا الجو يتأرّج بعرف البخور، وإذا الأصوات ترتفع متغنية بمدح النبى، وإذا هذا الحفل كله يتحرك في بطء وكأنما تتحرك معه الأرض وما عليها من دور. كل ذلك لأن هذا الفتى الأزهرى قد اتخذ في هذا اليوم خليفة، فهو يُطاف به في المدينة وما حولها من القرى في هذا المهرجان الباهر، وما باله اتخذ خليفة دون غيره من الشبان ؟ لأنه أزهرى قد قرأ العلم وحفظ الألفية والجوهرة والخريدة!.

---

(١) تعظيم.

المناقشة

١. لماذا تأجَّلَ سَفَرُ الصبى إلى الأزهرِ ؟

٢. كيف قضى الصبى السنة التى تأجَّلَ فيها سَفَرُهُ إلى القاهرةِ للالتحاقِ بالأزهرِ ؟

٣. كان لاختيار الأخ الأزهرى خليفةً أثرٌ كبيرٌ فى نفسِ الصبى. وضِّح ذلك.

٤. كان الشيخ يشربُ كلامَ ابنه الأزهرى شرباً. المقصود بهذه العبارة:

أ) أن الشيخ كان يُحِب كلامه.

ب) أن الشيخ كان ينسى كلامَه.

ت) أن الشيخ كان يحفظُ كلامَه.

٥. ماذا لقِى أخوه الأزهرى يومَ مولدِ النبى من إكرامٍ و حفاوةٍ ؟

٦. استنتج معالم صورة «العِلم» و«العُلماء» كما استقرَّت فى نفوس عامة الناس فى هذا الوقت.

.....

٨-العلم بين مكانتين

للعلم فى القرى ومدن الأقاليم جلال ليس له مثله فى العاصمة ولا فى بيئاتها العلمية المختلفة. وليس فى هذا شيء من العجب ولا من الغرابة، وإنما هو قانون العرض والطلب، يجرى على العلم كما يجرى على غيره مما يباع ويشترى،فبينما يروح العلماء ويغدون فى القاهرة لا يحفل بهم أحد، أو لا يكاد يحفل بهم أحد، وبينما يقول العلماء فيكثرون فى القول، ويتصرفون فى فنونه، دون أن يلتفت إليهم أحد غير تلاميذهم فى القاهرة، ترى علماء الريف، وأشياخ القرى ومدن الأقاليم، يغدون ويروحون فى جلال ومهابة،ويقولون فيستمع لهم الناس مع شيء من الإكبار مؤثر جذاب. وكان صاحبنا متأثراً بنفسية الريف، يُكبر العلماء كما يُكبرهم الريفيون، ويكاد يؤمن بأنهم فطروا من طينة نقية ممتازة غير الطينة التى فُطِر منها الناس جميعًا.

وكان يسمع لهم وهم يتكلمون فيأخذه شيء من الإعجاب والدهش، حاول أن يجد مثله فى القاهرة أمام كبار العلماء وجلة الشيوخ فلم يوفق. كان علماء المدينة ثلاثة أو أربعة قد تقسموا فيما بينهم إعجاب الناس ومودتهم. فأما أحدهم فكان كاتباً فى المحكمة الشرعية، قصيراً ضخماً، غليظ الصوت جهوريه يمتلئ شدقه بالألفاظ حين يتكلم؛ فتخرج إليك هذه الألفاظ ضخمة كصاحبها، غليظة كصاحبها، وتصدمك معانيها كما تصدمك مقاطعها. وكان هذا الشيخ من الذين لم يفلحوا فى الأزهر قضى فيه ما يشاء أن يقضى من السنين، فلم يوفق إلى العالمية ولا إلى القضاء، فقنع بمنصب الكاتب فى المحكمة على حين كان أخوه قاضياً ممتازاً قد جُعِلَ إليه قضاء أحد الأقاليم ولم يكن هذا الشيخ يستطيع أن يجلس فى مجلس إلا فخر بأخيه وذم القاضى الذى هو معه. كان حنفى المذهب، وكان أتباع أبى حنيفة فى المدينة قليلين، أو لم يكن لأبى حنيفة فى المدينة أتباع؛ فكان

ذلك يغيظه ويحنقه على خصومه العلماء الآخرين،الذين كانوا يتبعون الشافعي أو مالكاً، ويجدون في أهل المدينة صدى لعلمهم، وطلاباً للفتوى عندهم. فكان لا يدع فرصة إلا مجد فيها فقه أبي حنيفة، وغض فيها من فقه مالك والشافعي. وأهل الريف مكرة أذكياء فلم يكن يخفى عليهم أن الشيخ إنما يقول ما يقول، ويأتي ما يأتي من الأمر، متأثراً بالحقد والمَوْجِدَة، فكانوا يعطفون عليه، ويضحكون منه. وكانت المنافسة شديدة عنيفة بين هذا الشيخ وبين الفتى الأزهري. كان ينتخب خليفة في كل سنة فغاظه أن ينتخب هذا الفتى خليفة دونه. ولما تحدث الناس أن الفتى سيلقي خطبة الجمعة سمع الشيخ هذا الحديث ولم يقل شيئًا. حتى إذا كان يوم الجمعة وامتلأ المسجد بالناس؛ وأقبل الفتى يريد أن يصعد المنبر، نهض الشيخ حتى انتهى إلى الإمام، وقال في صوت سمعه الناس: إن هذا الشاب حديث السن، وما ينبغي له أن يصعد المنبر ولا أن يخطب، ولا أن يصلي بالناس وفيهم الشيوخ وأصحاب الأسنان، ولئن خلّيت بينه وبين المنبر والصلاة لأنصرفن. ثم التفت إلى الناس وقال: ومن كان منكم حريصًا على ألا تبطل صلاته فليتبعني. سمع الناس هذا فاضطربوا، وكادت تقع بينهم الفتنة لولا أن نهض الإمام فخطبهم وصلى بهم، وحيل بين الفتى وبين المنبر هذا العام. ومع ذلك فقد كان الفتى أجهد نفسه في حفظ الخطبة واستعد لهذا الموقف أيامًا متصلة، وتلا الخطبة على أبيه غير مرة، وكان أبوه ينتظر هذه الساعة أشد ما يكون إليها شوقاً، وأعظم ما يكون بها ابتهاجًا. وكانت أمه مشفقة تخاف عليه العين، فما كاد يخرج إلى المسجد ذلك اليوم، حتى نهضت إلى جمر وضعته في إناء وأخذت تلقي فيه ضروبًا من البخور، وتطوف به البيت حجرة حجرة،تقف في كل حجرة لحظات وتهمهم بكلمات. وظلت كذلك حتى عاد ابنها، فإذا هي تلقاه من وراء الباب مبخرة مهمهمة، وإذا الشيخ مُغْضَب يلعن هذا الرجل الذي أكل الحسد قلبه، فحال بين ابنه وبين المنبر والصلاة.

وكان في المدينة عالم آخر شافعي. كان إمام المسجد، وصاحب

الخطبة والصلاة، وكان معروفاً بالتُّقى والورع، يذهب الناس في إكباره وإجلاله إلى حد يشبه التقديس، كانوا يتبركون به، ويلتمسون عنده شفاء مرضاهم وقضاء حاجاتهم. وكأنه كان يرى في نفسه شيئاً من الولاية. وظل أهل المدينة بعد موته سنين يذكرونه بالخير، ويتحدثون مقتنعين بأنه عندما أُنزل في قبره قال بصوت سمعه المشيعون جميعاً: اللهم اجعله منزلاً مباركاً. وكانوا يتحدثون بما رأوا فيما يرى النائم من حظ هذا الرجل عند الله، وما أعد له في الجنة من نعيم.

وشيخ ثالث كان في المدينة، وكان مالكي المذهب، ولم يكن ينقطع للعلم ولا يتخذه حرفة، وإنما كان يعمل في الأرض، ويتجر، ويختلف إلى المسجد فيؤدي الخمس، ويجلس إلى الناس من حين إلى حين، فيقرأ لهم الحديث، ويفقههم في الدين متواضعاً غير تياه ولا فخور، ولم يكن يحفل به إلا الأقلُّون عدداً.

هؤلاء هم العلماء. ولكن علماء آخرين كانوا منبثين في هذه المدينة وقراها وريفها. ولم يكونوا أقل من هؤلاء العلماء الرسميين تأثيراً في دهماء الناس وتسلطاً على عقولهم، منهم هذا الحاج..... الخياط الذي كان دكانه يكاد يقابل الكتاب، والذي كان الناس مجمعين على وصفه بالبخل والشح[1]، والذي كان متصلاً بشيخ من كبار أهل الطرق. والذي كان يزدري العلماء جميعاً، لأنهم يأخذون علمهم من الكتب لا عن الشيوخ، والذي كان يرى أن العلم الصحيح إنما هو العلم اللدني[2]، الذي يهبط على قلبك من عند الله دون أن تحتاج إلى كتاب؛ بل دون أن تقرأ أو تكتب.

وكان صبيُّنا يختلف بين هؤلاء العلماء جميعاً، ويأخذ عنهم جميعاً، حتى اجتمع له من ذلك مقدار من العلم ضخم مختلف مضطرب متناقض، ما أحسب إلا أنه عمل عملاً غير قليل في تكوين عقله الذي لم يخل من اضطراب واختلاف وتناقض.

---

(١) البخل الشديد ، الشحيح : البخيل ج شحاح وشحة و اشتحاء والمؤنث شحيحة ج شحائح .

(٢) العلم اللدنى : الربانى الذى يصل لصاحبه عن طريق الإلهام .

المناقشة

١. وازَنَ الكاتبُ بينَ نظرتى الريفِ و الحَضَرِ للعلماءِ فى عصرِه. وَضِّحْ ذلك.

٢. صَنَّفَ الشيخ العلم إلى علمِ الأزهريين و علم القُرَّاءِ و العلمِ اللَّدُنى. ما أوجُهُ الشبهِ و الاختلافِ بينَ هذه العلومِ الثلاثةِ ؟

٣. لماذا حال أحدُ الشيوخِ بينَ الشابِّ الأزهرى و صعودِ المنبَر ؟

.....

٩ـ سهام القدر

وكذلك اتصلت أيام الصبى بين البيت والكُتّاب والمحكمة والمسجد وبيت المفتش ومجالس العلماء وحلقات الذكر، لا هى بالحلوة ولا هى بالمرة، ولكنها تحلو حينا وَتُمرُّ حينا آخر، وتمضى فيما بين ذلك فاترة سخيفة. حتى كان يوم من الأيام ذاق الصبى فيه الألم حقا، وعرف منذ ذلك أن تلك الآلام التى كان يشقى بها ويكره من أجلها الحياة لم تكن شيئًا، وأن الدهر قادر على أن يؤلم الناس ويؤذيهم ويحبب إليهم الحياة ويهون من أمرها على نفوسهم فى وقت واحد. كانت للصبى أخت هى صغرى أبناء الأسرة، كانت فى الرابعة من عمرها. كانت خفيفة الروح طلقة الوجه فصيحة اللسان عذبة الحديث قوية الخيال، كانت لهو الأسرة كلها، كانت تخلو إلى نفسها ساعات طوالا فى لهو وعبث، تجلس إلى الحائط فتتحدث إليه كما تتحدث أمها إلى زائرتها، وتبعث فى كل اللعب التى كانت بين يديها روحا قوية وتسبغ عليها شخصية.فهذه اللعبة امرأة وهذه اللعبة رجل، وهذه اللعبة فتى، وهذه اللعبة فتاة، والطفلة بين هؤلاء الأشخاص جميعا تذهب وتجىء وتصل بينها الأحاديث مرة فى لهو وعبث، وأخرى فى غيظ وغضب، ومرة ثالثة فى هدوء واطمئنان. وكانت الأسرة كلها تجد لذة قوية فى الاستماع إلى هذه الأحاديث والنظر إلى هذه الألوان من اللعب دون أن ترى الطفلة، أو تسمع، أو تحس أن أحدًا يرقبها.

فما هى إلا أن أقبلت بوادر[1] عيد الأضحى فى سنة من السنين، وأخذت أمّ الصبى تستعد لهذا العيد تهيئ له الدار وتعد له الخبز وألوان الفطير، وأخذ إخوة الصبى يستعدون لهذا العيد، يختلف كبارهم إلى

---

(١) بوادر: بشائر. والمفرد: بادرة.

الخياط حينا، وإلى الحذّاء حينا آخر، ويلهو صغارهم بهذه الحركة الطارئة على الدار، فينظر صبينا إلى أولئك وهؤلاء فى شيء من الفلسفة كان قد تعوّده. فلم يكن فى حاجة إلى أن يختلف إلى خياط أو حذّاء، وما كان ميالا إلى اللهو بمثل هذه الحركات الطارئة، وإنما كان يخلو إلى نفسه ويعيش فى عالم من الخيال يستمده من هذه القصص والكتب المختلفة التى كان يقرؤها فيسرف فى قراءتها.

أقبلت بوادر هذا العيد، وأصبحت الطفلة ذات يوم فى شيء من الفتور والهمود لم يكد يلتفت إليه أحد. والأطفال، فى القرى ومدن الأقاليم معرضون لهذا النوع من الإهمال ولا سيما إذا كانت الأسرة كثيرة العدد، وربة البيت كثيرة العمل. ولنساء القرى ومدن الأقاليم فلسفة آثمة وعلم ليس أقل منها إثما. يشكو الطفل، وقلما تعنى به أمه.. وأى طفل لا يشكو! إنما هو يوم وليلة ثم، يفيق ويُبلِ[1]. فإن عُنيت[2] به أمه فهى تزدرى الطبيب أو تجهله، وهى تعتمد على هذا العلم الآثم، علم النساء وأشباه النساء. وعلى هذا النحو فقد صبينا عينيه؛ أصابه الرمد فأهمل أيامًا، ثم دعى الحلاق فعالجه علاجا ذهب بعينيه.. وعلى هذا النحو فقدت هذه الطفلة الحياة؛ ظلت فاترة هامدة محمومة يومًا ويومًا ويومًا، وهى ملقاة على فراشها فى ناحية من نواحى الدار، تعنى بها أمها أو أختها من حين إلى حين، تدفع إليها شيئا من الغذاء الله يعلم أكان جيداً أم رديئاً ؟ والحركة متصلة فى البيت: يهيأ الخبز والفطير فى ناحية، وتنظف المنظرة وحجرة الاستقبال فى ناحية أخرى، والصبيان فى لهوهم وعبثهم، والشبان فى ثيابهم وأحذيتهم، والشيخ يغدو ويروح ويجلس إلى أصحابه آخر النهار وأول الليل.

حتى إذا كان عصر اليوم الرابع وقف هذا كله فجأة. وقف وعرفت أم الصبى أن شبحا مخيفا يحلق على هذه الدار. ولم يكن الموت قد دخل

---

(١) أبل من مرضه، شفى منه.

(٢) اهتمت واعتنت.

هذه الدار من قبل، ولم تكن هذه الأم الحنون قد ذاقت لذع الألم الصحيح. نعم! كانت فى عملها وإذا الطفلة تصيح صياحًا منكرًا، فتدع أمها كل شيء وتسرع إليها، والصياح يتصل ويزداد، فتدع أخوات الطفلة كل شيء ويسرعن إليها. والصياح يتصل ويشتد، والطفلة تتلوى وتضطرب بين ذراعى أمها، فيدع الشيخ أصحابه ويسرع إليها. والصياح يتصل ويشتد، والطفلة ترتعد ارتعادا منكرا ويتقبض وجهها ويتصبب العرق عليه، فينصرف الصبيان والشبان عما هم فيه من لهو وحديث ويسرعون إليها. ولكن الصياح لا يزداد إلا شدة، وإذا هذه الأسرة كلها واجمة مبهوتة محيطة بالطفلة لا تدرى ماذا تصنع! ... ويتصل ذلك ساعة وساعة . فأما الشيخ فقد أخذه الضعف الذي يأخذ الرجال فى مثل هذه الحال فينصرف مهمهما بصلوات وآيات من القرآن يتوسل بها إلى الله. وأما الشبان والصبيان فيتسللون فى شيء من الوجوم لا يكادون ينسون ما كانوا فيه من لهو وحديث ولا يكادون يستأنفونه.هم كذلك حيارى فى الدار! وأمهم جالسة واجمة تحدق فى ابنتها وتسقيها ألواناً من الدواء لا أعرف ما هى. والصياح متصل مشتد، والاضطراب مستمر متزايد.

ما كنت أحسب أنه فى الأطفال، ولمَّا يتجاوزوا الرابعة، قوة تعدل هذه القوة. وتأتى ساعة العشاء وقد مدت المائدة مدتها كبرى أخوات الصبى، وأقبل الشيخ وبنوه فجلسوا إليها. ولكن صياح الطفلة متصل فلا تمد يد إلى طعام، وإنما يتفرقون جميعاً وترفع المائدة كما مدت. والطفلة تصيح وتضطرب، وأمها تحدق فيها حينا وتبسط يدها إلى السماء حينا آخر، وقد كشفت عن رأسها وما كان من عادتها أن تفعل ولكن أبواب السماء كانت قد أغلقت فى ذلك اليوم، فقد سبق القضاء بما لا بد منه، فيستطيع الشيخ أن يتلو القرآن، وتستطيع هذه الأم أن تتضرع[1]. ومن غريب الأمر أن أحداً من هؤلاء الناس جميعاً لم يفكر فى الطبيب. وتقدم

---

(١) تدعو وتبتهل.

الليل وأخذ صياح الفتاة يهدأ، وأخذ صوتها يخفت، وأخذ اضطرابها يخف، وخيل إلى هذه الأم التعسة أن قد سمع الله لها ولزوجها، وأن قد أخذت الأزمة تنحل. وفى الحق أن الأزمة كانت قد أخذت تنحل[1]، وأن الله كان قد رأف بهذه الطفلة، وأن خفوت الصوت وهدوء هذا الاضطراب كانا آيتى هذه الرأفة. تنظر الأم إلى ابنتها فيخيل إليها أنها ستنام، ثم تنظر فإذا هدوء متصل لا صوت ولا حركة، وإنما هو نفس خفيف شديد الخفة يتردد بين شفتين مفتحتين قليلاً، ثم ينقطع هذا النفس وإذا الطفلة قد فارقت الحياة.

ماذا كانت علتها ؟ كيف ذهبت بحياتها هذه العلة ؟ الله وحده يعلم هذا وهنا يرتفع صياح آخر ويتصل ويشتد. وهنا يظهر اضطراب آخر ويتصل ويشتد. ولكنه ليس صياح الطفلة ولا اضطرابها، وإنما هو صياح هذه الأم وقد رأت الموت، واضطرابها وقد أحست الثكل. وإذا الشبان والصبيان قد فزعوا إلى أمهم وسبقهم إليها الشيخ. وإذا هى فى جزع وهلع ينطق لسانها بألفاظ لا صلة بينها، ويقطع الدمع صوتها تقطيعاً، وإذا هى تلطم خديها فى عنف متصل، وزوجها ماثل أمامها لاينطق لسانه بحرف، وإنما تنهمر دموعه انهمارا. وإذا الجارات والجيران قد سمعوا هذا الصياح فأقبلوا مسرعين. فأما الشيخ فينصرف إلى الرجال يتقبل عزاءهم فى قوة وجَلَد. وأما الشبان والصبيان فيتفرقون فى الدار، قد قست قلوب بعضهم فنام، ورقت قلوب بعضهم فسهر. وأما الأم ففيما هى فيه من جزع وهلع ! أمامها ابنتها هامدة جامدة، تولول وتخمش وجهها وتصك صدرها، ومن حولها بناتها وجاراتها يصنعن صنيعها يولولن ويخمشن الوجوه ويصككن الصدور حتى ينقضى الليل كله.

وما أشد نكر هذه الساعة التى أقبل فيها بعض الناس واحتملوا الطفلة ومضوا بها إلى حيث لا تعود. كان ذلك اليوم يوم الأضحى، وكانت

---

(١) تنفرج – تنكشف.

الدار قد هُيِّئتْ للعيد. وكانت الأضاحى قد أعدت. فياله من يوم! ويا لها من أضاحى! ويا نكرها من ساعة حين عاد الشيخ إلى داره مع الظهر، وقد وارى ابنته فى التراب!

منذ ذلك اليوم اتصلت الأواصر بين الحزن وبين هذه الأسرة. فما هى إلا أشهر حتى فقد الشيخ أباه الهرم. وما هى إلا أشهر أخرى حتى فقدت أم الصبى أمها الفانية. وإنما هو حداد متصل وألَمٌ يقفو[1] بعضه بعضا، منه اللاذع ومنه الهادئ. حتى كان هذا اليوم المنكر الذى لم تعرف الأسرة يوما مثله، والذى طبع حياتها بطابع من الحزن لم يفارقها، والذى ابيضَّ له شعر الأبوين جميعا، والذى قضى على هذه الأم أن تلبس السواد إلى آخر أيامها، وألا تذوق للفرح طعما، ولا تضحك إلا بكت إثر ضحكها، ولا تنام حتى تريق بعض الدموع، ولا تفيق من نومها حتى تريق دموعا أخرى، ولا تطعم فاكهة حتى تطعم منها الفقراء والصبيان، ولا تبتسم لعيد، ولا تستقبل يوم سرور إلا وهى كارهة راغمة.

كان هذا اليوم يوم ٢١ أغسطس من سنة ١٩٠٢. وكان الصيف منكرًا فى هذه السنة. وكان وباء الكوليرا قد هبط إلى مصر ففتك بأهلها فتكا ذريعا: دمر مدنًا وقرى، ومحا أُسرًا كاملة، وكان سيدنا قد أكثر من الحُجُب وكتابة المخلفات، وكانت المدارس والكتاتيب قد أُقفلت، وكان الأطباء ورسل مصلحة الصحة قد انبثوا فى الأرض ومعهم أدواتهم وخيامهم يحجزون فيها المرضى، وكان الهلع قد ملأ النفس واستأثر بالقلوب، وكانت الحياة قد هانت على الناس، وكانت كل أسرة تتحدث بما أصاب الأسر الأخرى وتنتظر حظها من المصيبة، وكانت أم الصبى فى هلع مستمر، وكانت تسأل نفسها ألف مرة فى كل يوم بمن تنزل النازلة من أبنائها وبناتها! وكان لها ابن فى الثامنة عشرة جميل المنظر رائع الطلعة، نجيب، ذكى القلب، وكان أنجب الأسرة وأذكاها وأرقها قلبا. وأصفاها

---

(١) يتبع.

طبعا، وأبرها بأمه، وأرأفها بأبيه، وأرفقها بصغار إخوته وأخواته، وكان مبتهجًا أبدًا. وكان قد ظفر بشهادة البكالوريا وانتسب إلى مدرسة الطب وأخذ ينتظر آخر الصيف ليذهب إلى القاهرة. فلما كان هذا الوباء، اتصل بطبيب المدينة وأخذ يرافقه ويقول: إنه يتمرن على صناعته حتى كان يوم ٢٠ أغسطس.

أقبل الشاب آخر هذا اليوم كعادته باسمًا، فلاطف أمه وداعبها وهدَّأ من روعها وقال: لم تُصْب المدينة اليوم بأكثر من عشرين إصابة وقد أخذت وطأة الوباء تخف، لكنه مع ذلك شكا من بعض الغثيان[1] وخرج إلى أبيه فجلس إليه وحدثه كعادته، ثم ذهب إلى أصحابه فرافقهم إلى حيث كان يذهب معهم فى كل يوم عند شاطئ الإبراهيمية. فلما كان أول الليل عاد وقضى ساعة فى ضحك وعبث مع إخوته، وفى هذه الليلة زعم لأهل البيت جميعًا أن فى أكل الثوم وقاية من الكوليرا، وأكل الثوم وأخذ كبار إخوته وصغارهم بالأكل منه وحاول أن يقنع أبويه بذلك فلم يوفق.

وكانت الدار هادئة مغرقة فى النوم كبارها وصغارها وحيوانها عندما انتصف الليل. ولكن صيحة غريبة ملأت هذا الجو الهادئ، فهب لها القوم جميعًا. فأما الشيخ وزوجته فكانا فى هذا الدهليز المنبسط الذى تظله السماء يدعوان ابنهما باسمه. وأما الشبان من أهل الدار فكانوا يثبون من فراشهم مسرعين إلى حيث الصوت. وأما الصبيان فكانوا يجلسون يحكون أعينهم بأيديهم يحاولون أن يتبينوا فى شيء من الهلع من أين يأتى الصوت وماذا كانت الحركة الغريبة!.

وكان مصدر هذا كله صوت هذا الفتى وهو يعالج القيء، وكان الفتى قد قضى ساعة أو ساعتين يخرج من الحجرة على أطراف قدميه ويمضى إلى الخلاء ليقيء مجتهدًا ألا يوقظ أحدًا حتى إذا بلغت العلة منه أقصاها لم يملك نفسه ولم يستطع أن يقيء فى لطف، فسمع أبواه هذه الحشرجة ففزعا لها، وفزع معهما أهل الدار جميعا.

(١) غثت النفس غثيا وغثيانا : خبثت واضطربت حتى تكاد تتقيأ .

إذًا فقد أصيب الشاب ووجد الوباء طريقه إلى الدار، عرفت أم الفتى بأى أبنائها تنزل النازلة. لقد كان الشيخ فى تلك الليلة خليقا بالإعجاب حقا. كان هادئا رزينا مروعاً مع ذلك، ولكنه يملك نفسه وكان فى صوته شيء يدل على أن قلبه مفطور، وعلى أنه مع ذلك جلد مستعد لاحتمال النازلة. آوى ابنه إلى حجرته وأمر بالفصل بينه وبين بقية إخوته، وخرج مسرعا فدعا جارين من جيرانه، وما هى إلا ساعة حتى عاد ومعه الطبيب.

وفى أثناء ذلك كانت أم الفتى مروعة جلدة مؤمنة تعنى بابنها، حتى إذا أمهله القيء خرجت إلى الدهليز فرفعت يدها ووجهها إلى السماء وفنيت فى الدعاء والصلاة، حتى تسمع حشرجة القيء فتسرع إلى ابنها تسنده إلى صدرها وتأخذ رأسه بين يديها، ولسانها مع ذلك لا يكف عن الدعاء والابتهال.

ولم تستطع أن تحول بين الصبيان والشبان وبين المريض، فملأوا عليه الحجرة وأحاطوا به واجمين[1]، وهو يداعب أمه كلما أمهله القيء، ويعبث مع صغار إخوته، حتى إذا جاء الطبيب فوصف ما وصف وأمر بما أمر وانصرف على أن يعود مع الصبح، لزمت أم الفتى حجرة ابنها وجلس الشيخ قريبا من هذه الحجرة واجما لا يدعو ولا يصلى ولا يجيب أحداً من الذين كانوا يتحدثون إليه.

وأقبل الصبح بعد لأى، وأخذ الفتى يشكو ألما فى ساقيه، وأقبلت إليه أخواته يدلكن له ساقيه، وهو يشكو صائحا مرة كاتما ألمه مرة أخرى، والقيء يجهده ويخلع فى الوقت نفسه قلب أبويه. وقضت الأسرة كلها صباحا لم تقض مثله قط: صباحاً واجماً مظلماً فيه شيء مفزع مروع. فأما خارج الدار فكان يزدحم بالناس أقبلوا إلى الشيخ يواسونه. وأما داخل الدار فكان مزدحماً بالناس أقبلن يواسين أم الفتى. وكان الشيخ وزوجه عن أولئك وهؤلاء فى شغل. وكان الطبيب يتردد بين ساعة وساعة. وكان الفتى قد

---

(١) ساكتين م واجم.

طلب أن يبرق إلى أخيه الأزهرى فى القاهرة وإلى عمه فى أعلى الإقليم. وكان يطلب الساعة من حين إلى حين ينظر فيها كأنه يتعجل الوقت، وكأنه يشفق أن يموت دون أن يرى أخاه الشاب وعمه الشيخ. يا لها من ساعة منكرة!. هذه الساعة الثالثة من الخميس ٢١ أغسطس سنة ١٩٠٢.

انصرف الطبيب من الحجرة يائسا، وكأنه قد أسر إلى رجلين من أقرب أصحاب الشيخ إليه بأن الفتى يُحْتَضَرُ، فأقبل الرجلان حتى دخلا الحجرة على الفتى ومعه أمه. ظهرت فى هذا اليوم لأول مرة فى حياتها أمام الرجال.

والفتى فى سريره يتضور: يقف ثم يلقى بنفسه، ثم يجلس ثم يطلب الساعة، ثم يعالج القيء، وأمه واجمة، والرجلان يواسيانه وهو يجيبهما: لست خيراً من النبى. أليس النبى قد مات ؟! ويدعو أباه يريد أن يواسيه فلا يجيبه الشيخ. وهو يقوم ويقعد ويلقى نفسه فى السرير مرة ومن دون السرير مرة أخرى، وصبينا منزوٍ فى ناحية من هذه الحجرة، واجم كئيب دَهِش يمزق الحزن قلبه تمزيقا.

ثم ألقى نفسه على السرير وعجز عن الحركة، وأخذ يئن أنيناً يخفت من حين إلى حين. وكان صوت هذا الأنين يبعد شيئا فشيئا. وأن الصبى لينسى كل شيء قبل أن ينسى هذه الأنة الأخيرة التى أرسلها الفتى نحيلة ضئيلة طويلة ثم سكت.

فى هذه اللحظة نهضت أم الفتى وقد انتهى صبرها ووهَى جلدها، فلم تكد تقف حتى هوت أو كادت، وأسندها الرجلان فتمالكت نفسها وخرجت من الحجرة مطرقة ساعية فى هدوء، حتى إذا جاوزتها انبعثت من صدرها شكاة، لا يذكرها الصبى إلا انخلع لها قلبه انخلاعا. واضطرب الفتى قليلاً ومرت فى جسمه رعدة تبعها سكوت الموت. وأقبل الرجلان إليه فهيآه وعصباه وألقيا على وجهه لثاماً، وخرجا إلى الشيخ. ثم ذكرا أن الصبى منزو فى ناحية من نواحى الحجرة، فعاد أحدهما إليه فجذبه جذبا

وهو ذاهل حتى انتهى به إلى مكان بين الناس فوضعه فيه كما يوضع الشيء.

وما هى إلا ساعة أو بعض ساعة حتى هيىء الفتى للدفن وخرج الرجال به على أعناقهم.

فياللقضاء! ما كادوا يبلغون به باب الدار حتى كان أول من لقى النعش هذا العم الشيخ الذى كان الفتى يتمهل الموت دقائق ليراه.

من ذلك اليوم استقر الحزن العميق فى هذه الدار وأصبح إظهار الابتهاج أو السرور بأى حادث من الحوادث شيئاً ينبغى أن يتجنبه الشبان والأطفال جميعاً.

من ذلك اليوم تعود الشيخ ألا يجلس إلى غدائه ولا إلى عشائه حتى يذكر ابنه ويبكيه ساعة أو بعض ساعة، وأمامه امرأته تعينه على البكاء، ومن حوله أبناؤه وبناته يحاولون تعزية هذين الأبوين فلا يبلغون منهما شيئًا فيجهشون جميعًا بالبكاء..

من ذلك اليوم تعودت هذه الأسرة أن تعبر النيل إلى مقر الموتى من حين إلى حين، وكانت من قبل ذلك تعيب الذين يزورون الموتى.

ومن ذلك اليوم تغيرت نفسية صبينا تغيرا تاما، عرف الله حقًا. وحرص على أن يتقرب إليه بكل ألوان التقرب: بالصدقة حينًا وبالصلاة حينًا آخر وبتلاوة القرآن مرة ثالثة. ولقد شهد الله ما كان يدفعه إلى ذلك خوف ولا إشفاق ولا إيثار للحياة، ولكنه كان يعلم أن أخاه الشاب كان من أبناء المدارس، وكان يقصر فى أداء واجباته الدينية، فكان الصبى يأتى ما يأتى من ضروب العبادة يريد أن يحط عن أخيه بعض السيئات. كان أخوه فى الثامنة عشرة من عمره، وكان الصبى قد سمع من الشيوخ أن الصلاة والصوم فرض على الإنسان متى بلغ الخامسة عشرة، فقدر الصبى فى نفسه أن أخاه مدين لله بالصوم والصلاة ثلاثة أعوام كاملة، وفرض الصبى على نفسه ليصلين الخمس فى كل يوم مرتين: مرة لنفسه ومرة لأخيه! وليصومن من السنة شهرين: شهراً لنفسه وشهراً لأخيه، وليكتمن ذلك عن

أهله جميعاً وليجعلن ذلك عهداً بينه وبين الله خاصة، وليطعمن فقيراً أو يتيماً مما تصل إليه يده من طعام أو فاكهة قبل أن يأخذ بحظه منه. وشهد الله لقد وفى الصبى بهذا العهد أشهرًا وما غير سيرته هذه إلا حين ذهب إلى الأزهر.

من ذلك اليوم عرف الصبى أرق الليل. فكم أنفق سواد الليل كاملاً يفكر فى أخيه أو يقرأ سورة الإخلاص آلاف المرات ثم يهب ذلك كله لأخيه، أو ينظم شعرًا على نحو هذا الشعر الذى كان يقرؤه فى كتب القصص يذكر فيه حزنه وألمه لفقد أخيه،معنيًا بألا يفرغ من قصيدة حتى يصلى فى آخرها على النبى واهباً ثواب هذه الصلاة لأخيه.

نعم! ومن ذلك اليوم عرف الصبى الأحلام المروعة، فقد كانت علة أخيه تتمثل له فى كل ليلة، واستمرت الحال كذلك أعوامًا. ثم تقدمت به السن وعمل فيه الأزهر عمله، فأخذت علة أخيه تتمثل له من حين إلى حين، وأصبح فتى ورجلا، وتقلبت به أطوار الحياة، وإنه لعلى ما هو عليه من وفاء لهذا الأخ، يذكره ويراه فيما يرى النائم مرة فى الأسبوع على أقل تقدير.

ولقد تعزى عن هذا الفتى إخوته وأخواته، ونسيه من نسيه من أصحابه وأترابه، وأخذت ذكراه لا تزور أباه الشيخ إلا لمامًا، ولكن اثنين يذكرانه أبداً، وسيذكرانه أبداً، وسيذكرانه أبداً أول الليل من كل يوم، هما: أمه وهذا الصبى.

المناقشة

١. بم وَصَفَ الصبى طفولة أختِهِ الصُّغرى ؟ و لم عدَّها ضحيَّةَ الإهمال؟

٢. «عاد الشيخ و قد وارى ابنتَهُ فى الترابِ.. منذُ ذلك اليوم اتصلت الأواصِرُ بين الحزنِ و بينَ هذه الأسرةِ». ماذا قَصَدَ الكاتبُ بهذه «الأواصر» ؟

٣. ما اليومُ الذى طَبَعَ الأسرةَ بطابَعِ الحزنِ الدائم ؟

٤. كيف فكَّر الصبى فى الإحسان إلى أخيه الشابّ بعدَ وفاتِه ؟

٥. «كانت عِلَّةُ أخيهِ تتمَثَّلُ له كُلَّ ليلة». اشرح ما قَصَدَه الكاتبُ بهذه العبارة.

.....

١٠ـ بشرى صادقة

أما فى هذه المرة فستذهب إلى القاهرة مع أخيك، وستصبح مجاورًا، ستجتهد فى طلب العلم، وأنا أرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضيًا وأراك من علماء الأزهر، قد جلست إلى أحد أعمدته ومن حولك حلقة واسعة بعيدة المدى.

قال الشيخ ذلك لابنه آخر النهار فى يوم من خريف سنة ١٩٠٢، وسمع الصبى هذا الكلام فلم يصدق ولم يكذب، ولكنه آثر أن ينتظر تصديق الأيام أو تكذيبها له، فكثيرا ما قال له أبوه مثل هذا الكلام، وكثيرًا ما وعده أخوه الأزهرى مثل هذا الوعد، ثم سافر الأزهرى إلى القاهرة، ولبث الصبى فى المدينة يتردد بين البيت والكتّاب والمحكمة ومجالس الشيوخ.

وفى الحق أنه لم يفهم لماذا صدق وعد أبيه فى هذه السنة، فقد أخبر الصبى ذات يوم أنه مسافر بعد أيام، وأقبل يوم الخميس، فإذا الصبى يرى نفسه يتأهب للسفر حقًّا، وإذا هو يرى نفسه فى المحطة ولما تشرق الشمس. وهو يرى نفسه جالسًا القرفصاء[1] منكس الرأس كئيبًا محزونا، ويسمع أكبر إخوته ينهره فى لطف قائلاً له :لاتنكس رأسك هكذا، ولاتأخذ هذا الوجه الحزين فتحزن أخاك. ويسمع أباه يشجعه فى لطف قائلاً: ماذا يحزنك ؟ ألست رجلا ؟ ألست قادرًا على أن تفارق أمك، أم أنت تريد أن تلعب ؟ ألم يكفك هذا اللعب الطويل ؟

شهد الله ما كان الصبى حزينا لفراق أمه، وما كان الصبى حزينا لأنه لن يلعب، إنما كان يذكر هذا الذى ينام هنالك من وراء النيل. كان يذكره، وكان يذكر أنه كثيراً ما فكر فى أنه سيكون معهما فى القاهرة تلميذًا فى مدرسة الطب. كان يذكر هذا كله فيحزن، ولكنه لم يقل شيئًا

---

(١) يجلس ملصقا فخذيه ببطنه .

ولم يظهر حزنا، وإنما تكلف الابتسام. ولو قد أرسل نفسه مع طبيعتها لبكى ولأبكى من حوله أباه وأخويه، وانطلق القطار ومضت ساعات ورأى صاحبنا نفسه فى القاهرة بين جماعة من المجاورين قد أقبلوا إلى أخيه فحيوه وأكلوا ما كان قد احتمله لهم من طعام.

وانقضى هذا اليوم، وكان يوم الجمعة، وإذا الصبى يرى نفسه فى الأزهر للصلاة. وإذا هو يسمع الخطيب شيخا ضخم الصوت عاليه، فخم الراءات والقافات، لا فرق بينه وبين خطيب المدينة إلا فى هذا. فأما الخطبة فهى ما كان تعود أن يسمع فى المدينة. وأما الحديث فهو هو. وأما النعت فهو هو.وأما الصلاة فهى هى ليست أطول من صلاة المدينة ولاأقصر.

وعاد الصبى إلى بيته أو قل إلى حجرة أخيه خائب الظن بعض الشيء. وسأله أخوه: ما رأيك فى تجويد القرآن ودرس القراءات ؟ قال الصبى: لست فى حاجة إلى شيء من هذا، فأما التجويد فأنا أتقنه، وأمـا القراءات فلست فى حاجة إليها، وهل درست أنت القراءات ؟ أليس يكفينى أن أكون مثلك؟ إنما أنا فى حاجة إلى العلم، أريد أن أدرس الفقه والنحو والمنطق والتوحيد.

قال أخوه: حسبك! يكفى أن تدرس الفقه والنحو فى هذه السنة.

وكان يوم السبت، فاستيقظ الصبى مع الفجر، وتوضأ وصلى، ونهض أخوه فتوضأ وصلى كذلك، ثم قال له: ستذهب معى الآن إلى مسجد كذا، وستحضر درسا ليس لك، وإنما هو لى، حتى إذا فرغنا من هذا الدرس ذهبت بك إلى الأزهر فالتمست لك شيخًا من أصحابنا تختلف[1] إليه وتأخذ عنه مبادئ العلم. قال الصبى: وما هذا الدرس الذى سأحضره ؟ قال أخوه ضاحكا: هو درس الفقه وهو ابن عابدين على الدرّ. قال ذلك يملأ به فمه.قال الصبى ومن الشيخ ؟ قال أخوه: هو الشيخ.. وكان الصبى قد سمع اسم الشيخ... ألف مرة ومرة. فقد كان أبوه يذكر هذا الاسم

---

(١) تتبعه ، تذهب إليه .

ويفتخر بأنه عرف الشيخ حين كان قاضياً للإقليم. وكانت أمه تذكر هذا الاسم، وتذكر أنها عرفت امرأته فتاة هوجاء جلفة، تتكلف زى أهل المدينة وما هى من زى أهل المدن فى شيء، وكان أبو الصبى يسأل ابنه الأزهرى كلما عاد من القاهرة عن الشيخ ودروسه وعدد طلابه.

وكان ابنه الأزهرى يحدثه عن الشيخ ومكانته فى المحكمة العليا وحلقته التى تعد بالمئات. وكان أبو الصبى يلح على ابنه الأزهرى فى أن يقرأ كما كان يقرأ الشيخ، فيحاول الفتى تقليده فيضحك أبوه فى إعجاب وإكبار. وكان أبو الصبى يسأل ابنه: أيعرفك الشيخ ؟ فيجيب الفتى: وكيف لا! وأنا ورفاقى من أخص تلاميذه وآثرهم عنده، نحضر درسه العام ثم نحضر عليه درساً خاصًّا فى بيته، وكثيراً ما نتغدى لنعمل معه بعد ذلك فى كتبه الكثيرة التى يؤلفها، ثم يمضى الفتى فى وصف بيت الشيخ وحجرة استقباله ودار كتبه، وأبوه يسمع ذلك معجباً، حتى إذا خرج إلى أصحابه قص عليهم ما سمع من ابنه فى شيء من التيه والفخار.

المناقشة

١. ما الذى كان يُحزِنُ الصبى و هو يتأهَّبُ للسفرِ إلى الأزهَرِ ؟

٢. ماذا أراد الصبى أن يدرس فى أوّل سنة له فى الأزهر ؟ و بم نصَحَهُ أخوه عندئذ ؟

٣. لماذا كان الصبى مبتهجا بالذهابِ إلى شيخه فى الفقه والنحو ؟

١١ـ بين أب وابنته

إنك يا ابنتى لساذجة سليمة القلب طيبة النفس. أنت فى التاسعة من عمرك، فى هذه السن التى يعجب فيها الأطفال بآبائهم وأمهاتهم ويتخذونهم مُثُلاً عليا فى الحياة: يتأثرون بهم فى القول والعمل، ويحاولون أن يكونوا مثلهم فى كل شيء، ويفاخرون بهم إذا تحدثوا إلى أقرانهم أثناء اللعب، ويخيل إليهم أنهم كانوا أثناء طفولتهم كما هم الآن مثلا عليا يصلحون أن يكونوا قدوة حسنة وأسوة صالحة.

أليس الأمر كما أقول ؟ ألست ترين أن أباك خير الرجال وأكرمهم ؟ ألست ترين أنه قد كان كذلك خير الأطفال وأنبلهم ؟ ألست مقتنعة أنه كان يعيش كما تعيشين أو خيرًا مما تعيشين ؟ ألست تحبين أن تعيشى الآن كما كان يعيش أبوك حين كان فى الثامنة من عمره ؟ ومع ذلك فإن أباك يبذل من الجهد ما يملك، ويتكلف من المشقة ما يطيق وما لا يطيق، ليجنبك حياته حين كان صبيًّا.

لقد عرفته يا ابنتى فى هذا الطور من أطوار حياته. ولو أنى حدثتك ما كان عليه حينئذ لكذبت كثيرًا من ظنك، ولخيبت كثيرًا من أملك، ولفتحت إلى قلبك الساذج ونفسك الحلوة بابًا من أبواب الحزن، حرام أن يفتح إليهما وأنت فى هذا الطور اللذيذ من الحياة. ولكنى لن أحدثك بشيء مما كان عليه أبوك فى ذلك الطور الآن. لن أحدثك بشيء من هذا حتى تتقدم بك السن قليلا فتستطيعين أن تقرئى وتفهمى وتحكمى. ويومئذ تستطيعين أن تعرفى أن أباك أحبك حقًّا، وجد فى إسعادك حقًّا، ووفق بعض التوفيق إلى أن يجنبك طفولته وصباه.

نعم يا ابنتى لقد عرفت أباك فى هذا الطور من حياته. وإنى لأعرف أن فى قلبك رقة ولينا، وإنى لأخشى لو حدثتك بما عرفت من أمر أبيك حينئذ أن يملكك الإشفاق وتأخذك الرأفة فتجهشي[1] بالبكاء.

---

(١) فتهمى بالبكاء.

لقد رأيتك ذات يوم جالسة على حجر أبيك وهو يقص عليك قصة «أوديب ملكا » وقد خرج من قصره بعد أن فقأ عينيه لا يدرى كيف يسير، وأقبلت ابنته «أنتيجون » فقادته وأرشدته. رأيتك ذلك اليوم تسمعين هذه القصة مبتهجة من أولها، ثم أخذ لونك يتغير قليلا قليلا وأخذت جبهتك السمحة تربد شيئاً فشيئاً، وما هى إلا أن أجهشت بالبكاء وانكببت على أبيك لثما وتقبيلاً، وأقبلت أمك فانتزعتك من بين ذراعيه، وما زالت بك حتى هدأ روعك، وفهمت أمك وفهم أبوك وفهمت أنا أيضًا أنك إنما بكيت لأنك رأيت أوديب الملك كأبيك مكفوفًا لا يبصر ولا يستطيع أن يهتدى وحده. فبكيت لأبيك كما بكيت «لأوديب ».

نعم! وإنى لأعرف أن فيك عبث الأطفال وميلهم إلى اللهو والضحك وشيئاً من قسوتهم، وإنى لأخشى يا ابنتى إن حدثتك بما كان عليه أبوك فى بعض أطوار صباه أن تضحكى منه قاسية لاهية، وما أحب أن يضحك طفل من أبيه، وما أحب أن يلهو به أو يقسو عليه. ومع ذلك فقد عرفت أباك فى طور من أطوار حياته أستطيع أن أحدثك به دون أن أثير فى نفسك حزناً، ودون أن أغريك بالضحك أو اللهو.

عرفته فى الثالثة عشرة من عمره حين أرسل إلى القاهرة ليختلف إلى دروس العلم فى الأزهر؛ إنْ كان فى ذلك الوقت لصبى جد وعمل. كان نحيفاً شاحب اللون مهمل الزى أقرب إلى الفقر منه إلى الغنى، تقتحمه العين اقتحاماً فى عباءته القذرة وطاقيته التى استحال بياضها إلى سواد قاتم، وفى هذا القميص الذى يبين من تحت عباءته وقد اتخذ ألوانا مختلفة من كثرة ما سقط عليه من الطعام، ومن نعليه الباليتين المرقعتين. تقتحمه العين فى هذا كله، ولكنها تبتسم له حين تراه على ما هو عليه من حال رثة وبصر مكفوف، واضح الجبين مبتسم الثغر[1] مسرعاً مع قائده إلى

(١) الفم ج ثغور.

الأزهر، لا تختلف خطاه، ولا يتردد فى مشيته، ولا تظهر على وجهه هذه الظلمة التى تغشى عادة وجوه المكفوفين. تقتحمه العين ولكنها تبتسم له وتلحظه فى شيء من الرفق، حين تراه فى حلقة الدرس مصغيًا كله إلى الشيخ يلتهم كلامه التهامًا، مبتسمًا مع ذلك لا متألمًا ولا متبرمًا ولا مظهرًا ميلا إلى لهو، على حين يلهو الصبيان من حوله أو يشرئبون إلى اللهو.

عرفته يا ابنتى فى هذا الطور، وكم أحب لو تعرفينه كما عرفته. إذًا تقدرين ما بينك وبينه من فرق، ولكن أنّى لك هذا وأنت فى التاسعة من عمرك ترين الحياة كلها نعيمًا وصفوا.

عرفته ينفق[1] اليوم والأسبوع والشهر والسنة لا يأكل إلا لونًا واحدًا، يأخذ منه حظه فى الصباح ويأخذ منه حظه فى المساء، لا شاكيًا ولا متبرمًا ولا متجلدًا، ولا مفكرًا فى أن حاله خليقة بالشكوى. ولو أخذت يا ابنتى من هذا اللون حظًّا قليلا فى يوم واحد لأشفقت أمك ولقدمت إليك قدحًا من الماء المعدنى، ولانتظرت أن تدعو الطبيب.

لقد كان أبوك ينفق الأسبوع والشهر لا يعيش إلا على خبز الأزهر، وويل للأزهريين من خبز الأزهر؛ إن كانوا ليجدون فيه ضروبًا من القش وألوانًا من الحصى وفنونًا من الحشرات.

وكان ينفق الأسبوع والشهر والأشهر لا يغمس هذا الخبز إلا فى العسل الأسود، وأنت لا تعرفين العسل الأسود، وخير لك ألا تعرفيه.

كذلك كان يعيش أبوك جادا مبتسماً للحياة والدرس، محرومًا لايكاد يشعر بالحرمان. حتى إذ انقضت السنة وعاد إلى أبويه وأقبلا عليه يسألانه كيف يأكل ؟ وكيف يعيش ؟ أخذ ينظم لهما الأكاذيب كما تعود أن ينظم لك القصص، فيحدثهما بحياة يحياها كلها رغد ونعيم. وما كان يدفعه إلى هذا الكذب حب الكذب.

---

(١) يقضى.

إنما كان يرفق بهذين الشيخين ويكره أن ينبئهما بما هو فيه من حرمان، وكان يرفق بأخيه الأزهرى، ويكره أن يعلم أبواه أنه يستأثر دونه بقليل من اللبن. كذلك كانت حياة أبيك فى الثالثة عشرة من عمره.

فإن سألتنى كيف انتهى إلى حيث هو الآن ؟ وكيف أصبح شكله مقبولا لا تقتحمه العين ولا تزدريه ؟ وكيف استطاع أن يهيئ لك ولأخيك ما أنتما فيه من حياة راضية ؟ وكيف استطاع أن يثير فى نفوس كثير من الناس ما يثير من حسد وحقد وضغينة، وأن يثير فى نفوس ناس آخرين ما يثير من رضا عنه وإكرام له وتشجيع ؟ إن سألت كيف انتقل من تلك الحال إلى هذه الحال، فلست أستطيع أن أجيبك! وإنما هناك شخص آخر هو الذى يستطيع هذا الجواب. فسليه يُنَبِّئْكِ.

أتعرفينه ؟ انظرى إليه! هو هذا الملك القائم الذى يحنو على سريرك إذا أمسيت لتستقبلى الليل فى هدوء ونوم لذيذ، ويحنو على سريرك إذا أصبحت لتستقبلى النهار فى سرور وابتهاج. ألست مدينة لهذا الملك بما أنت فيه من هدوء الليل وبهجة النهار ؟!

لقد حنا يا ابنتى هذا الملك على أبيك، فبدله من البؤس نعيمًا، ومن اليأس أملاً، ومن الفقر غِنًى، ومن الشقاء سعادة وصفوًا

ليس دين أبيك لهذا الملكِ بأقل من دينك. فلتتعاونا يا ابنتى على أداء هذا الدين. وما أنتما ببالغين من ذلك بعض ما تريدان.

طه حسين

المناقشة

١. لماذا أشفقَ الكاتِبُ من مُصارَحَةِ ابنتِهِ بحقيقةِ ما كان من طفولتِهِ وصباه ؟

٢. بم وصف الكاتب هيأتَهُ وشكلَهُ حينما أُرسِلَ إلى القاهرة فى الثالثة عشرة من عمرِهِ ؟

٣. «ويلٌ للأزهريين من خبزِ الأزهرِ». ماذا قَصَدَ الكاتِبُ بهذه العبارة ؟

٤. لماذا كان الكاتب ينظِمُ الأكاذيبَ لوالديهِ إذا سألاه عن مأكلِهِ ومعاشِه فى الأزهر ؟

٥. من الذى عدَّه الكاتب صاحِبَ الفضلِ عليه فى انتقاله من البؤسِ إلى النعيم ؟

الأيام

الجزء الثانى

١ـ من البيت إلى الأزهر

أقام فى القاهرة أسبوعين أو أكثر من أسبوعين، لا يعرف من أمره إلا أنه ترك الريف وانتقل إلى العاصمة ليطيل فيها المقام طالبا للعلم مختلفا إلى مجالس الدرس فى الأزهر، وإلا أنه يقضى يومه فى أحد هذه الأطوار الثلاثة التى يتخيلها ولا يحققها.

فهو يسكن بيتا غريبا يسلك إليه طريقا غريبة أيضا، ينحرف إليها نحو اليمين إذا عاد من الأزهر، فيدخل من باب يفتح أثناء النهار ويغلق فى الليل، وتفتح فى وسطه فجوة ضيقة بعد أن تُصَلى العشاء. فإذا تجاوز هذا الباب أحس عن يمينه حَرًّا خفيفًا يبلغ صفحة وجهه اليمنى، ودخانـًا خفيفا يداعب خياشيمه، وأحس من شماله صوتـًا غريبًا يبلغ سمعه ويثير فى نفسه شيئا من العجب. وقد ظل أيامًا يسمع هذا الصوت إذا عاد من الأزهر مصبحًا وإذا عاد منه ممسيًا، يسمعه وينكره، ويستحى أن يسأل عنه، ثـم فهم من بعض الحديث أنه قرقرة الشيشة يدخنها بعض تجار الحى ويهيئها صاحب القهوة التى كان ينبعث منها ذلك الحر الخفيف وذلك الدخان الرقيق. فإذا مضى أمامه خطوات وجاوز ذلك المكان الرطب المسقوف الذى لم تكن تستقر فيه القدم لكثرة ما كان يصب فيه صاحب القهوة من الماء، خرج إلى طريق مكشوفة، ولكنها ضيقة قذرة تنبعث منها روائح غريبة معقدة لا يكاد صاحبنا يحققها، تنبعث هادئة بغيضة فى أول النهار وحين يقبل الليل، وتنبعث شديدة عنيفة حين يتقدم النهار ويشتد حرُّ الشمس.

وكان صاحبنا يمضى أمامه فى هذه الطريق الضيقة، وقلما كانت تستقيم له هذه الطريق. وما أكثر ما كان صاحبه ينحرف به ذات اليمين

أوذات الشمال ليجنبه عقبة قائمة هنا أو هناك! فكان يسعى حينئذ مستعرضا قد أدار وجهه نحو هذا البناء عن يمين أو ذلك البناء عن شمالٍ، حتى إذا جاوز هذه العقبة استقبل الطريق كما بدأها ساعياً أمامه فى خطى رفيقة قلقة، تأخذ أنفه تلك الروائح المنكرة، وتأخذ أذنيه أصوات مختلطة مصطخبة[1] تنحدر من عل وتصعد من أسفل، وتنبعث من يمين وتنبعث من شمال وتلتقى كلها فى الجو؛ فكأنما كانت تنعقد فتؤلف من فوق رأس الصبى سحابًا رقيقًا ولكنه متراكم قد غشى بعضه بعضا.

وكانت هذه الأصوات مختلفة أشدَّ الاختلاف: أصوات النساء يختصمن، وأصوات الرجال يتنادون فى عنف ويتحدثون فى رفق، وأصوات الأثقال تُحَط وتُعْتل، وصوت السقاء يتغنى ببيع الماء، وصوت الحوذى[2] يزجر حماره أو بغله أو فرسه، وصوت العربة تئِزُّ عجلاتها أزًّا[3]، وربما شق هذا السحاب من الأصوات نهيق حمار أو صهيل فرس.

وكان صاحبنا يمضى بين هذا كله مشرد النفس قد غفل أو كاد يغفل عن كل أمره. حتى إذا بلغ من هذه الطريق مكانًا بعينه سمع أحاديث مختلطة تأتيه من باب قد فتح عن شماله فعرف أنَّهُ سينحرف بعد خطوة أو خطوتين إلى الشمال ليصعد فى السُّلم الذى سينتهى به إلى حيث يقيم. وكان هذا السُّلم متوسطًا ليس بشديد السعة ولا بشديد الضيق، قد اتخذ دَرَجُهُ من الحجر، ولكن كثر التصعيد فيه والهبوط منه ولم يتعهد بالغسل ولا بالتنظيف، فتراكم عليه تراب كثيف، ثم انعقد ولزم بعضه بعضا حتى استخفى الحجر استخفاء، وخيل إلى المصعد فيه والهابط منه أنه إنما يتخذ سُلَّمًا من الطين. ومع أن الصبى كان كلفا بإحصاء الدرج كلما صعد فى سلم أو هبط منه، فقد أقام ما شاء الله له أن يقيم فى ذلك المكان،

---

(١) متصايحة ومتضاربة، والمقصود العالية المختلطة.

(٢) سائق العربة.

(٣) صوت ينتج من شدة الحركة أو الغليان، ومصدرها أز ا وأزيزا.

وصعد فى ذلك السلم وهبط منه ما شاء الله له أن يصعد أو يهبط، ولم يخطر له قط أن يحصى درج هذا السلم، وإنما علم بعد أن اتخذه مرتين أومرات أنه إذا صعد منه درجات فلابد من أن ينحرف قليلا نحو الشمال ليمضى فى التصعيد تاركا عن يمينه فجوة لم يلجها[1] قط، ولكنه كان يعلم أنها كانت تؤدى إلى الطبقة الأولى[2] من ذلك البناء الذى أقام فيه أعواما طوالا.

كان يترك إذن عن يمينه مدخل تلك الطبقة من الطبقات التى لم يكن يسكنها طلاب العلم، وإنما كان يسكنها أخلاط من العمال والباعة، ويمضى مصعدًا حتى يبلغ الطبقة الثانية، فلا يكاد يبلغها حتى تجد نفسه المكدودة شيئا من الراحة يأتيه من هذا الهواء الطلق الذى كان يبيح له التنفس بعد أن كاد يختنق فى ذلك السُّلم القذر، وتأتيه من صوت تلك الببغاء التى كانت تصوت فى غير انقطاع، كأنما تُشهد الناس جميعًا على ظلم صاحبها الفارسى الذى سجنها فى ذلك القفص البغيض، ليبيعها غدا أو بعد غد لرجل آخر يسجنها فى قفص بغيض، حتى إذا تخفف منها وقبض ثمنها نقدا اشترى بدلها خليفة تقوم فى ذلك السجن مقامها وتدعو فيه دعاءها وتنتظر فيه مثل ما كانت تنتظر صاحبتها: أن تنقل من يد إلى يد ومن قفص إلى قفص، وأن ينتقل معها دعاؤها الحزين الذى يبتهج الناس به من مكان إلى مكان. كان صاحبنا إذا بلغ أعلى السُّلم استقبل الهواء الطلق بوجهه ودعاه صوت الببغاء إلى أن ينحرف نحو اليمين، فيفعل ويمضى فى طريق ضيقة فيمر أمام بيتين يسكنهما رجلان من فارس: أحدهما لا يزال شابا، والآخر قد تقدمت به السن. فى أحدهما شراسة وغلظة وانقباض عن الناس[3] وفى الآخر دعة[4] ورقة وتبسط للناس.

---

(١) يدخلها، والمصدر: ولوجًا.

(٢) الطبقة أو المرتبة أو الدرجة، والمقصود الطابق أو الدور الأول من البيت.

(٣) اعتزالهم والانطواء عنهم.

(٤) دعة، مادة ودع – يودع دعة وهى السكينة والاستقرار.

ثـم يبلغ الصبى بيته، فيدخل إلى غرفة هى أشبه بالدهليز،قد تجمعت فيها المرافق المادية للبيت، وهى تنتهى به إلى غرفة أخرى واسعة غير مستقيمة قد تجمعت فيها المرافق العقلية للبيت. وهى على ذلك غرفة النوم، وغرفة الطعام،وغرفة الحديث، وغرفة السّمر، وغرفة القراءة والدرس فيها الكتب وفيها أدوات الشاى، وفيها بعض رقائق الطعام. وكان مجلس الصبى من هذه الغرفة معروفًا محدودًا كمجلسه من كل غرفة سكنها واختلف إليها. كان مجلسه عن شماله إذا دخل الغرفة، يمضى خطوة أوخطوتين فيجد حصيراً قد بُسط على الأرض ألقى عليه بساط قديم ولكنه قيم.هنالك يجلس أثناء النهار، وهنالك ينام أثناء الليل. تُلقى له وسادة يضع عليها رأسه ولحاف يلتف فيه. وكان يحاذى مجلسه من الغرفة مجلس أخيه الشيخ، وهو أرقى فى مجلسه قليلًا أو كثيرا: حصير قد بُسط على الأرض وألقى عليه بساط لا بأس به، ثـم ألقى على البساط فراش آخر من اللبد، ثـم ألقى من فوق هذا الفراش حشية طويلة عريضة من القطن، ثـم بُسطت من فوقها ملاءة. على هذه الحشية كان يجلس الفتى الشيخ ويجلس معه أصفياؤه[1].ولم يكونوا يسندون ظهورهم إلى الحائط كما كان يفعل الصبى، وإنما كانوا يسندونها إلى وسائد قد رُصَّتْ على الحشية رصًّا؛ فإذا كان الليل استحال هذا المجلس سريرًا ينام عليه الفتى الشيخ.

(١) أصفياؤه: جمع صفى وهم الأصدقاء المخلصون.

المناقشة

١. لماذا كان الصبى يستحى أن يسأل عن ذلك الصوت الذى يسمعه كلما عاد من الأزهر مصبحا أو ممسيا ؟

٢. «وتأخذ أذنيه أصوات مختلفة مصطخبة تنحدر من عل و تصعد من أسفل وتنبعث من يمين، وتنبعث من شمال ». نستدل من هذه العبارة أن الصبى كان يقطن فى :

أ) منطقة متحضرة راقية.

ب) منطقة شعبية مزدحمة.

ت) منطقة ريفية بسيطة.

٣. علام يدل تشبيهه لتلك الأصوات بالسحاب المتراكم ؟

٤. لماذا لم يخطر ببال الصبى أن يحصى درج السُّلم الذى يصعده بالرغم من رغبته الدائمة فى ذلك ؟

٥. علام يدل تأثر الصبى بحال الببغاء التى سجنها صاحبها الفارسى فى هذا القفص ؟

٦. ما الذى يمكن أن تستنبطه من وصف مجلس الصبى مقارنا بمجلس أخيه الشيخ ؟

.....

٢ـ حب الصبى للأزهر

وكان هذا الطور أحب أطوار حياته تلك إليه وآثرها عنده. كان أحب إليه من طوره ذاك فى غرفته التى كان يشعر فيها بالغربة شعورا قاسيا؛ لأنه لا يعرفها ولا يعرف مما اشتملته من الأثاث والمتاع إلا أقله وأدناه إليه؛ فهو لا يعيش فيها كما كان يعيش فى بيته الريفى وفى غرفاته وحجراته تلك التى لم يكن يجهل منها ومما احتوت عليه شيئا، وإنما كان يعيش فيها غريبا عن الناس وغريبا عن الأشياء؛ وضيقا حتى بذلك الهواء الثقيل الذى كان يتنفسه فلا يجد فيه راحة ولا حياة؛ وإنما كان يجد فيه ألما وثقلا.

وكان أحب إليه من طوره الثانى فى طريقه تلك بين البيت والأزهر؛ فقد كان فى ذلك الطور مُشْرَدًا مفرَّق النفس[1] مضطرب الخطى ممتلئ القلب بهذه الحيرة المضلة الباهظة التى تفسد على المرء أمره وتجعله يتقدم أمامه لا على غير هدى فى طريقه المادية وحدها — فقد كان ذلك محتومًا عليه — بل على غير هدى فى طريقه المعنوية أيضًا، فقد كان مصروفًا عن نفسه بما يرتفع حوله من الأصوات وما يضطرب حوله من الحركات. وقد كان مستخذيًا فى نفسه من اضطراب خطاه وعجزه من أن يلائم بين مشيته الضالة الحائرة الهادئة ومشية صاحبه المهتدية العارمة العنيفة.

فأما فى طوره الثالث هذا فقد كان يجد راحة وأمناً وطمأنينة واستقراراً. كان هذا النسيم الذى يترقرق[2] فى صحن الأزهر حين تُصَلّى الفجر يتلقى وجهه بالتحية فيملأ قلبه أمنًا وأملا. وما كان يشبّه وقع هذا النسيم على جبهته التى كانت تندى بالعرق من

---

(١) موزع النفس، والمقصود مشتت.

(٢) ينساب ويتحرك برقة.

سرعة ما سعى، إلا بتلك القبلات التى كانت أمُّه تضعها على جبهته بين حين وحين، فى أثناء إقامته فى الريف حين يقرئها آيات من القرآن أو يمتعها بقصة مما قرأ فى الكتب أثناء عبثه فى الكُتَّاب أو حين كان يخرج ضعيفًا شاحبًا من خلوته تلك التى كان يتوسل فيها إلى الله بعدِّيَّة يس ليقضى هذه الحاجة أو تلك من حاجات الأسرة.

كانت تلك القبلات تنعش قلبه وتشيع فى نفسه أمنًا وأملا وحنانًا، وكان ذلك النسيم الذى كان يتلقاه فى صحن الأزهر يشيع فى نفسه هذا كله ويرده إلى الراحة بعد التعب، وإلى الهدوء بعد الاضطراب، وإلى الابتسام بعد العبوس. ومع ذلك فلم يكن يعلم من أمر الأزهر شيئا، ولم يكن يعرف مما يحتويه الأزهر شيئًا، وإنما كان يكفيه أن تمس قدميه الحافيتين أرض هذا الصحن، وأن يمس وجهه نسيمُ هذا الصحن، وأن يحس الأزهر من حوله نائمًا يريد أن يستيقظ، وهادئًا يريد أن ينشط ليعود إلى نفسه أو لتعود إليه نفسه. وإذا هو يشعر أنه فى وطنه وبين أهله، لايحس غربة ولا يجد ألمًا، وإنما هى نفسه تتفتح من جميع أنحائها، وقلبه يتشوق من جميع أقطاره ليتلقى.. ليتلقى ماذا ؟ ليتلقى شيئا لم يكن يعرفه، ولكنه كان يحبه ويُدفع إليه دفعًا، طالما سمع اسمه وأراد أن يعرف ما وراء هذا الاسم، وهو العلم.

وكان يشعر شعورًا غامضًا ولكنه قوى بأن هذا العلم لاحد له، وبأن الناس قد ينفقون حياتهم[1] كلها ولا يبلغون منه إلا أيسره. وكان يريد أن ينفق حياته كلها وأن يبلغ من هذا العلم أكثر ما يستطيع أن يبلغ مهما يكن فى نفسه يسيرًا. وكان قد سمع من أبيه الشيخ ومن أصحابه الذين كانوا يجالسونه من أهل العلم أن العلم بحر لا ساحل له، فلم يأخذ هذا الكلام على أنه تشبيه أو تجوز، وإنما أخذه على أنه الحق كل الحق.

---

(١) يمضونها ويصرفونها .

وأقبل إلى القاهرة وإلى الأزهر يريد أن يلقى نفسه فى هذا البحر فيشرب منه ما شاء الله له أن يشرب ثم يموت فيه غرقًا. وأى موت أحب إلى الرجل النبيل من هذا الموت الذى يأتيه من العلم ويأتيه وهو غَرِقٌ فى العلم!

كانت هذه الخواطر كلها تثور فى نفسه الناشئة فجأة، فتملؤها وتملكها وتنسيها تلك الغرفة الموحشة وتلك الطريق المضطربة الملتوية، بل تنسيها الريف ولذات الريف، وتُشْعِرُها بأنها لم تكن مخطئة ولا غالية حين كانت تتحرق شوقاً إلى الأزهر وضيقًا بالريف.

وكان الصبى يسعى أمامه مع صاحبه حتى يقطع الصحن ويصعد هذه الدرجة اليسيرة التى يبتدئ بها الأزهر نفسه، فيمتلئ قلبه خشوعًا، وخضوعًا، وتمتلئ نفسه إكبارًا وإجلالا. ويخفف الخطو على هذه الحصر المبسوطة البالية التى كانت تنفرج أحيانًا عما تحتها من الأرض، كأنها تريد أن تتيح لأقدام الساعين عليها شيئًا من البركة بلمس هذه الأرض المطهرة. وكان الصبى يحب الأزهر فى هذه اللحظة حين ينفتل[1] المصلون من صلاة الفجر وينصرفون وفى عيونهم النعاس، ليتحلقوا[2] حول هذا العمود أو ذاك، وينتظروا هذا الأستاذ أوذاك، فيسمعوا منه درس الحديث أو درس التفسير أو درس الأصول أودرس التوحيد.

كان الأزهر فى هذه اللحظة هادئاً لا ينعقد فيه ذلك الدوى الغريب الذى كان يملؤه منذ تطلع الشمس إلى أن تصلى العشاء، وإنما كنت تسمع فيه أحاديث يتهامس بها أصحابها، وربما سمعت فتى يتلو القرآن فى صوت هادئ معتدل، وربما مررت إلى جانب مُصَلٍ لم يدرك الجماعة أوأدركها ولكنه مضى فى التنفل بعد أن أدى الفريضة. وربما سمعت أستاذًا

(١) ينصرف.
(٢) يجلسون فى حلقة.

هنا أو هناك يبدأ درسه بهذا الصوت الفاتر، صوت الذى استيقظ من نومه فأدى صلاته ولم يطعم بعد شيئا يبعث فى جسمه النشاط والقوة، فهو يقـول فى صوت هادئ حلو منكسر بعض الشىء: «بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. قال المؤلف رحمه الله تعالى ونفعنا بعلمه آمين ».

والطلاب يسمعون لهذا الصوت فى هدوء وفتور يشبهان هدوء الشيخ وفتوره. وما أكثر ما كان الصبى يوازن فى نفسه بين أصوات الشيوخ حين ينطقون بهذه الصيغة فى درس الفجر، وأصواتهم حين ينطقون بها فى درس الظهر! فأما أصوات الفجر فكانت فاترة حلوة فيها بقية من نوم. وأما أصوات الظهر فكانت قوية عنيفة ممتلئة فيها شىء من كسل أيضًا، تُصوِّر امتلاء البطون بما كانت تمتلئ به من طعام الأزهريين فى ذلك الوقت الذى كان الأزهريون يعيشون فيه على الفول والمخلل وما يشبه الفول والمخلل من ألوان الطعام.

كان فى أصوات الفجر دعاء للمؤلفين يشبه الاستعطاف، وكان فى أصوات الظهر هجوم على المؤلفين يوشك أن يكون عدوانًا، وكانت هذه الموازنة تعجب الصبى وتثير فى نفسه لذة ومتاعًا.

وكان يسعى مع صاحبه حتى يرقى هاتين الدرجتين اللتين يبتدئ بهما الليوان[1]، وهناك إلى جانب عمود من هذه الأعمدة المباركة قد شُدَّ إليه كرسى بسلسلة غليظة يُجلسه صاحبه ويقول له: انتظر هنا فستسمع درساً فى الحديث، فإذا فرغت من درسى فسأعود إليك.

وكان درس صاحبه فى أصول الفقه، وكان أستاذ صاحبه الشيخ راضى رحمه الله، وكان الكِتَـابُ الذى يُدَرِّسه الشيخ راضى كِتَابَ التحرير للكمال بن الهمام. وكان الصبى يسمع هذه الألفاظ كلها فيمتلئ لها قلبه

---

(١) الساحة الداخلية للمسجد.

رهبًا ورغبًا ومهابة وإجلالا. أصول الفقه، ما عسى أن يكون هذا العلم ؟ الشيخ راضى! من عسى أن يكون هذا الشيخ ؟ التحرير! ما معنى هذه الكلمة ؟ الكمال بن الهمام! ما أعظم هذين الاسمين! حقا إن العلم بحر لاساحل له، والخير كل الخير للرجل الذكى أن يغرق فيه. وكان إجلال الصبى لهذا الدرس خاصة يزداد ويعظم من يوم إلى يوم حين كان يسمع أخاه ورفاقه يطالعون الدرس قبل حضوره فيقرءون كلامًا غريبًا ولكنه حلو الموقع فى النفس.

كان الصبى يسمعه فيتحرق شوقًا إلى أن تتقدم به السن ستة أعوام أو سبعة ليستطيع أن يفهمه وأن يحل ألغازه ويفك رموزه، ويتصرف فيه كما كان يتصرف فيه أولئك الشبان البارعون، ويجادل فيه أساتذته كما كان يجادل فيه أولئك الشباب البارعون، ولكنه الآن مضطر إلى أن يسمع ولا يفهم. وما كان أكثر ما يقلّب فى نفسه هذه الجملة أو تلك لعله يجد وراءها شيئاً فلا يظفر بطائل، ولا يزيده ذلك إلا إكباراً للعلم، وإجلالا للعلماء، وإصغاراً لنفسه، واستعداداً للعمل والجد!

وقد سمع جملة بعينها شهد الله أنها أرّقته غير ليلة من لياليه، ونغّصت عليه حياته غير يوم من أيامه، ولعلها أن تكون قد صرفته عن غير درس من دروسه اليسيرة، فقد كان يفهم دروسه الأولى فى غير مشقة، وكان ذلك يغريه بالانصراف عن حديث الشيخ إلى التفكير فى بعض ما سمع من أولئك الشبان النجباء.

وكانت هذه الجملة التى ملأت نفسه وقلبه غريبة فى حقيقة الأمر، وقعت على أذنه وهو فى أول النوم وآخر اليقظة،فردته إلى اليقظة ليله كله، وهى «والحق هدم الهدم ». ما معنى هذا الكلام ؟ كيف يهدم الهدم ؟ وما عسى أن يكون هذا الهدم ؟ وكيف يكون الهدم حقًا ؟ وجعلت هذه الجملة تدور فى رأسه كما يدور هذيان الحمى فى رأس المريض، حتى صرف عنها ذات يوم بإشكال من إشكالات الكفراوى، أقبل عليه ففهمه

وجادل فيه، وأحس أنه بدأ يشرب من ذلك البحر الذى لا ساحل له وهو بحر العلم.

وكان الصبى يجلس إلى جانب ذلك العمود، يعبث بتلك السلسلة، ويسمع للشيخ وهو يلقى دروسه فى الحديث، فيفهم عنه فى وضوح وجلاء، ولا ينكر منه إلا تلك الأسماء التى كانت تساقط على الطلبة يتبع بعضها بعضاً، تسبقها كلمة «حدثنا» وتفصل بينها كلمة «عن».

وكان الصبى لا يفهم معنى لهذه الأسماء ولا لتتابعها ولا لهذه «العنعنة» الملة، وكان يتمنى أن تنقطع هذه العنعنة وأن يصل الشيخ إلى الحديث، فإذا وصل إليه سمعه الصبى ملقياً إليه نفسه كلها فحفظه وفهمه، وأعرض عن تفسير الشيخ، لأنه كان يذكره ما كان يسمع فى الريف من إمام المسجد، ومن ذلك الشيخ الذى كان يعلمه أوليات الفقه.

وبينما كان الشيخ يمضى فى دروسه كان الأزهر يستيقظ شيئاً فشيئا، كأنما كانت تنبهه أصوات أولئك الشيوخ الذين كانوا يلقون دروسهم، وما كان يثور بينهم وبين طلابهم من حوار يبلغ العنف أحياناً. فهؤلاء الطلاب يقبلون، وهذه الأصوات ترتفع، وهذا الدوى ينعقد، وهؤلاء الشيوخ ترتفع أصواتهم لتبلغ آذان التلاميذ، بل هؤلاء الشـــيوخ يضطرون أن ينطقوا بهذه الصيغة التى تؤذن بانتهاء الدرس، وهى: «والله أعلم»، لأن الطلاب قد أقبلوا ينتظرون درس الفقـــه من شيخ غير هذا الشـــيخ، أو من الشيخ نفسه، فلابد من أن ينتهى درس الفجر ليبدأ درس الصبح. هنالك كان يُقبل على الصبى صاحبه فيأخذه بيده فى غير كلام ويجذبه فى غير رفق، ويمضى إلى مجلس آخر فيضعه فيه كما يضع المتاع وينصرف عنه.

وقد فهم الصبى أنه قد نقل إلى درس الفقه، وأنه سيسمع هذا الدرس وسيفرغ منه، وسينصرف الشيخ ويتفرق الطلاب، ويبقى هو فى مكانه لا يتحول عنه حتى يعود إليه صاحبه من سيدنا الحسين حيث كان يسمع درس الفقه الذى كان يلقيه الشيخ بخيت رحمه الله.

وكان الشيخ بخيت يحب الإطالة فى الدرس، وكان طلابه يلحون عليه فى الجدال، فلم يكن يقطع درسه حتى يرتفع الضحى، وهنالك يعود إلى الصبى صاحبه فيأخذه بيده فى غير كلام، ويجذبه فى غير رفق، ويمضى به حتى يخرجه من الأزهر وحتى يرده إلى طوره الثانى، فيقطع به الطريق بين الأزهر والبيت، ثم إلى طوره الأول، فيلقيه فى مكانه من الغرفة على ذلك البساط القديم الذى ألقى على حصير بال عتيق. ومنذ ذلك الوقت يتهيأ الصبى لاستقبال حظه من العذاب.

المناقشة

١. «وقد كان مستخذيا فى نفسه من اضطراب خطاه وعجزه من أن يلائم بين مشيته الضالة الحائرة الهادئة ومشية صاحبه المهتدية العارمة العنيفة. يرجع اضطراب خطى الصبى و حيرة مشيته إلى:

أ) صغر سنه و ضعف جسمه.

ب) طول الطريق و اضطرابه.

ج) عجزه البصرى.

٢. هات مما قرأت من هذا الفصل ما يدل على شغف الصبى بالقراءة والكتب منذ صغره.

٣. «وأقبل إلى القاهرة وإلى الأزهر يريد أن يلقى نفسه فى هذا البحر فيشرب منه ما شاء الله. بين الجمال فى هذه العبارة.

٤. لماذا شبه الصبى النسيم الذى يترقرق فى صحن الأزهر بقبلات الأم على جبينه ؟

٥. بم تستدل مما قرأت على تقدير الصبى للأزهر و ولعه به ؟

٦. «إن العلم بحر لا ساحل له ». علام يدل هذا التعبير فى نفس الصبي؟

٧. لماذا أنكر الصبى أسلوب العنعنة الذى كان يتبعه الشيوخ فى دروسهم؟

.....

٣ـ وحدة الصبى فى غرفته

وكانت الوحدة المتصلة مصدر ذلك العذاب، فقد كان الصبى يستقر فى مجلسه من الغرفة قبيل العصر بقليل، ثم ينصرف عنه أخوه فيذهب إلى غرفة أخرى من غرفات «الربع » عند أحد أصحابه.

وكان مجلس الجماعة لا يستقر فى غرفة بعينها من غرفاتهم، وإنما هو عند أحدهم إذا أصبحوا، وعند ثان منهم إذا أمسوا، وعند ثالث منهم إذا تقدم الليل. وكان أخو الصبى يتركه فى غرفته بعد درس الظهر ويذهب إلى حيث يلقى أصحابه فى إحدى الغرفات، فينفقون وقتًا طويلا أو قصيرًا فى شىء من الراحة والدعابة والتندر[1] بالشيوخ والطلاب وكانت أصواتهم ترتفع وضحكاتهم تدوى فى «الربع » تدوية فتبلغ الصبى وهو جاثم فى مكانه، فتبتسم لها شفتاه ويحزن لها قلبه، لأنه لا يسمع كما كان يسمع فى الضحى ما أثارها من فكاهة أو نادرة،لأنه لا يستطيع كما كان يستطيع فى الضحى أن يشارك صامتًا بابتسامة نحيلة ضيقة فى هذا الضحك الغليظ العريض.

وكان الصبى يعلم أن القوم سيجتمعون حول شاى العصر إذا أرضوا حاجتهم إلى الراحة وإلى التندر بالشيوخ والزملاء، وسيستأنفون حول هذا الشاى حديثًا هادئًا منتظمًا، ثم يستعيدون ما يرون أن يستعيدوه من درس الظهر مجادلين مناظرين، ثم يعيدون درس المساء الذى يلقيه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى كتاب دلائل الإعجاز فى بعض أيام الأسبوع وفى تفسير القرآن الكريم فى بعضها الآخر. وسيتحدثون أثناء إعدادهم لهذا الدرس عن الأستاذ الإمام، وسيستعيدون ما كانوا يسمعون من نوادره وما كانوا يحفظون من رأيه فى الشيوخ ومن رأى الشيوخ فيه،وما كانوا يحفظون من أجوبته التى كان يلقيها لبعض السائلين له والمعترضين عليه فيفحمهم ويُضْحِكُ منهم زملاءهم الطلاب.

---

(١) السخرية

وكان الصبى لهذا كله محبًّا وبه كلفًا [1] وإليه مشوقًا متحرقًا. وربما أحس الصبى فى دخيلة نفسه الحاجة إلى كوب من أكواب الشاى تلك التى تدار هناك. فقد كان هو أيضًا قد كلف بالشاى وشعر بالحاجة إلى أن يشربه مصبحًا وممسيًا، وإلى أن يستكمل منه النصاب. ولكنه حرم هذا كله، فهؤلاء القوم يتندرون ويتناظرون ويدرسون ويشربون الشاى غير بعيد، وهو لا يستطيع أن يشارك فى شىء من هذا، ولا يستطيع أن يطلب إلى أخيه الإذن له بأن يحضر مجلس هؤلاء الشباب، ويستمتع بما فيه من لذة العقل والجسم معاً.

لا يستطيع أن يطلب ذلك، فأبغض شىء إليه أن يطلب إلى أحد شيئاً. ولو قد طلب ذلك إلى أخيه لرده عنه ردا رفيقا أو عنيفًا، ولكنه مؤلم له مؤذ لنفسه على كل حال فالخير فى أن يملك على نفسه أمرها، ويكتم حاجة عقله إلى العلم، وحاجة أذنه إلى الحديث، وحاجة جسمه إلى الشاى، ويظل قابعًا فى مجلسه مطرقًا[2] مغرقًا فى تفكيره. ولكن كيف السبيل إلى ذلك وقد ترك أخوه باب الغرفة مفتوحًا إلى أقصى غايته، وهذه أصوات القوم تبلغه، وهذه ضحكاتهم تصل إليه، وهذه دقات مصمتة تنتهى إليه[3] فتؤذنه بأن صاحب الشاى يحطم الخشب ليوقد النار وكل هذه الأصوات التى تنتهى إليه تثير فى نفسه من الرغبة والرهبة، ومن الأمل واليأس، ما يعنيه[4] ويضنيه، ويملأ قلبه بؤسًا وحزنًا، ويزيد فى بؤسه وحزنه أنه لا يستطيع حتى أن يتحرك من مجلسه، وأن يخطو هذه الخطوات القليلة التى تمكنه من أن يبلغ باب الغرفة ويقف أمامه حيث يكون أدنى إلى هذه الأصوات، وأجدر أن يسمع ما تحمله مما يتحدث به القوم. لقد كان ذلك خليقًا أن يسره ويسليه، ولكنه لا يستطيع أن ينتقل من مكانه، لا لأنه يجهل الطريق إلى الباب، فقد كان حفظ هذه الطريق،

---

(١) أحبه وأولع به، وكلف به.

(٢) اى قد امال رأسه إلى صدره وسكت فلم يتكلم.

(٣) تصله وتبلغه.

(٤) يشق عليه.

وكان يستطيع أن يقطعها متمهلا مستأنيًا، ولكن لأنه كان يستحى أن يفاجئه أحد المارة فيراه وهو يسعى متمهلا مضطرب الخطى. وكان يشفق أن يفاجئه أخوه الذى كان يلمّ بالغرفة من حين إلى حين ليأخذ كتابًا أو أداة أو لونًا من ألوان الطعام التى كانت تُدَّخر ليتبلغ بها[1] أثناء الشاى فى غير أوقات الإفطار أو العشاء.

وكان كل شىء أهون على الصبى من أن يفجأه أخوه وهو يسعى مضطربًا حائرًا: فيسأله: ما خطبك ؟ وإلى أين تريد ؟ فكان إذن يرى الخير فى أن يبقى فى مكانه ويؤثر العافية، ويردد فى نفسه تلك الحسرات اللادغة التى كان يجدها، وحسرات أخرى لم تكن أقل منها لذعا وإيلاما، حسرات الحنين إلى منزله ذلك، فى قزيته تلك من قرى الريف. هنالك حين كان يعود من الكُتَّاب وقد أرضى حاجته إلى اللعب، فيتبلغ بكسرة من الخبز المجفف مازحا مع أخواته قاصًّا على أمه ما أحب أن يقص عليها من أنباء يومه فى الكتاب فإذا بلغ من ذلك ما أراد، خرج من الدار فأغلق الباب وراءه، ثم مضى حتى يبلغ جدران البيت الذى كان يقوم أمامه، فلزمه ماضيا نحو الجنوب، حتى إذا بلغ مكانا بعينه انحرف إلى يمين، ثم مضى أمامه خطوات حتى ينتهى إلى حانوت الشيخ محمد عبد الواحد وأخيه الشاب الحاج محمود، فيجلس هناك متحدثا متندرا مستمعا لما كان يقوله المشترون من الرجال والمشتريات من النساء من هذه الأحاديث الريفية الساذجة التى تمتع باختلافها وطرافتها وسذاجتها أيضا.

وربما قل الطارئون على الحانوت من المشترين والمشتريات فخلا للصبى أحد صاحبى الحانوت، وجعل يتحدث إليه أو يقرأ له فى كتاب من الكتب. وربما عدل الصبى عن السعى إلى الحانوت وخرج من داره فجلس على المصطبة الملاصقة لها مطرقا يسمع حديث أبيه الشيخ مع أصحابه فى مجلسهم ذاك الذى كانوا يعقدونه منذ أن تصلى العصر إلى أن يدعوهم مؤذن المغرب إلى العشاء.

---

(١) يسد جوعه بها.

وربما عدل الصبى عن الخروج من داره وخلا إلى رفيق من رفاقه فى الكتّاب، قد أقبل عليه ومعه هذا الكتاب أو ذاك من كتب الوعظ، وهذه القصة أو تلك من قصص المغازى، فجعل يقرأ له حتى يدعوه غروب الشمس إلى العشاء هنالك لم يكن الصبى يشعر بالوحدة، ولم يكن يضطر إلى السكون، ولم يكن يجد ألم الجوع، ولم يكن يجد ألم الحرمان، ولم يكن يتحرق إلى كوب من أكواب الشاى.

كانت كل هذه الحسرات تضطرب فى نفس الصبى أشد الاضطراب وهو ساكن أشد السكون. وربما صرفه عنها لحظة صوت المؤذن حين كان يدعو إلى صلاة العصر فى جامع بيبرس، ولكنه كان صوتا منكرا أشد النُّكر، فكان يذكر الصبى بصوت المؤذن فى بلده، ولم يكن خيرًا من هذا الصوت ولكنه كثيرًا ما أتاح للصبى ألوانا من اللهو واللعب. فكم صعد المنارة مع المؤذن، وكم أذَّن مكانه وكم شاركه فى هذا الدعاء الذى يُدْعى به بعد الأذان! ولكنه هنا فى هذه الغرفة لا يستحب هذا الصوت، ولايستطيع أن يشارك فى الأذان، ولا يعرف حتى من أين يأتى هذا الصوت، وهو لم يدخل قط مسجد بيبرس، وهو لا يعرف الطريق إلى مئذنته، وهو لم يَبلُ درج هذه المئذنة، ولم يعرف أتستقيم للمصعد فيها وتتسع له أم تلتوى به وتضيق عليه كشأن مئذنته فى الريف.

لا يعرف شيئًا من ذلك ولا سبيل إلى أن يعرف منه شيئًا، إنما هو السكون، والسكون المتصل الطويل. يا للألم! إن العلم ليكلف طلابه أهوالا ثقالا.

وكان هذا السكون يطول على الصبى فيجهده، وربما أخذته إغفاءة وهو جالس فى مكانه، وربما اشتدت عليه هذه الإغفاءة فاضطرته إلى أن يستلقى ويسلم نفسه للنوم. وكان يسمع من أمه أن نوم العصر بغيض مؤد للأجسام والنفوس. ولكن كيف السبيل إلى أن يرد عن نفسه هذا النوم البغيض! ولكنه يهب فزعًا مذعورًا؛ فقد سمع صوتًا يدعوه بهذه الكلمة التى رنت فى آذانه أعوامًا وأعوامًا: «مولانا أنائم أنت ؟ »؛ يهب فزعا مذعورا لأن أخاه أقبل ينظر إليه ويسأله عن شأنه ويحمل إليه عشاءه.

وكان عشاؤه لذيذاً حقا؛ فقد كان يتألف من رغيف وقطع من الجبن الذى يسمى الجبن الرومى، أو قطعة من الحلاوة الطحينية. وكان هذا عشاءه فى أثناء الأسبوع، فكان أخوه يضع ذلك أمامه ويودعه منصرفا عنه ليذهب إلى الأزهر فيحضر درس الأستاذ الإمام.

وكان الصبى يقبل على طعامه راغبا عنه حينا وراغبا فيه حينا آخر، ولكنه كان يستنفده على كل حال. كان يبيح لنفسه الإقلال من الطعام إذا أكل مع أخيه، ولم يكن أخوه يكلمه فى ذلك أو يسأله عنه. فأما إذا خلا إلى طعامه فقد كان يأتى عليه كله حتى ولو رغب عنه أو ضاق به مخافة أن يبقى منه شيئا ويعود أخوه ويرى ذلك فيظن به المرض أويظن به الحزن وكان أبغض شيء إليه أن يثير فى نفس أخيه همًّا أو قلقا.

كان إذن يقبل على طعامه، حتى إذا فرغ منه عاد إلى سكونه وجموده فى ركنه الذى اضطر إليه، وقد أخذ النهار ينصرم[1] وأخذت الشمس تنحدر[2] إلى مغربها، وأخذ يتسرب إلى نفسه شعور شاحب هادئ حزين، ثم يدعو مؤذن المغرب إلى الصلاة، فيعرف الصبى أن الليل قد أقبل. ويقدر فى نفسه أن الظلمة قد أخذت تكتنفه، ويقدر فى نفسه أن لو كان معه فى الغرفة بعض المبصرين لأضىء المصباح ليطرد هذه الظلمة المتكاثفة، ولكنه وحيد لا حاجة له إلى المصباح فيما يظن المبصرون، وإن كان ليراهم مخطئين فى هذا الظن؛ فقد كان ذلك الوقت يُفرِّق تفرقة غامضة بين الظلمة والنور. وكان يجد فى المصباح إذا أضىء جليسا له ومؤنسا، وكان يجد فى الظلمة وحشة لعلها كانت تأتيه من عقله الناشئ ومن حسه المضطرب، والغريب أنه كان يجد للظلمة صوتا يبلغ أذنيه، صوتا متصلا يشبه طنين البعوض لولا أنه غليظ ممتلئ. وكان هذا الصوت يبلغ أذنيه فيؤذيهما، ويبلغ قلبه فيملؤه روعا، وإذا هو مضطر إلى أن يغير جلسته فيجلس القرفصاء ويعتمد بمرفقيه على ركبتيه ويخفى رأسه بين يديه، ويسلم نفسه لهذا الصوت الذى يأخذه من كل مكان. ومع أن سكون العصر

---

(١) يذهب وينقضى.

(٢) تغيب.

كان كثيرا ما يضطره إلى النوم فقد كان سكون العشية يضطره إلى اليقظة التى لا تشبهها يقظة.

وكان ينتهى إلى أن يألف صوت الظلمة ويطمئن إليه. ولكن فى الغرفة أصواتا أخرى كانت تفزعه وتروعه. أصوات مختلفة؛ فقد كانت هذه الغرفة من غرفات الأوقاف. ومعنى ذلك أنها كانت قديمة، قد طال عليها العهد، وبعد بها الأمد، وكثرت فى جدرانها الشقوق، وعمرت هذه الشقوق طوائف من الحشرات وغيرها من صغار الحيوان. وكانت هذه الحشرات وهذه الصغار من الحيوان كأنما وكلت بالصبى إذا أقبل الليل عليه وهو قابع وحده فى ذلك الركن من أركان الغرفة؛ فهى تبعث من الأصوات الضئيلة. وتأتى من الحركات الخفيفة السريعة حينا والبطيئة حينا آخر مايملأ قلب الصبى هلعا ورعبًا. فإذا أقبل أخوه وحده أو مع أصحابه فأضىء المصباح انقطعت هذه الأصوات والحركات كأنها لم تكن. وكان الصبى من أجل هذا ومن أجل أشياء أخرى غير هذا لا يجرؤ على أن يذكر من أمر هذه الأصوات والحركات شيئا. وأيسر ما كان يخاف إنْ تحدَّث ببعض ذلك أن يسفه رأيه وأن تظن بعقله وبشجاعته الظنون فكان يؤثر العافية ويكظم خوفه من الحشرات وصغار الحيوان.

وهذا المؤذن يدعو إلى صلاة العشاء، فيثير فى نفس الصبى أملا قصيرا يتبعه يأس طويل؛ فقد انتهى درس الأستاذ الإمام، وسيقبل أخو الصبى بعد قليل فيضىء المصباح ويضع محفظته فى مكانها، ويأخذ مايحتاج إليه من كتاب أو أداة أو طعام، ويشيع فى الغرفة فى أثناء ذلك شيئا من الأنس ويطرد من الغرفة فى أثناء ذلك تلك الوحدة المنكرة، ولكنه سيلقى إلى الصبى تلك الوسادة التى سيضع عليها رأسه، وذلك اللحاف الذى سيلتف فيه لينام، وسيشهد التفافَهُ فى لحافه ووَضْعَ رأسه على وسادته، ثم يطفئ المصباح وينصرف، ويغلق الباب من ورائه ويدير فيه المفتاح، ويمضى وهو يظن أنه أسلم الصبى إلى النوم وإن كان لم يسلمه إلاإلى أرق متصل مخيف.

وسيعود بعد ساعتين أو بعد ساعات، وقد طعم وشرب الشاى وناظر أصحابه وأعدَّ معهم ما شاء الله أن يُعِدَّ من درس للغد، فيدير المفتاح ثم يضىء المصباح، وهو يظن أن الصبى مغرق فى نوم هادئ لذيذ وما ذاق الصبى فى حقيقة الأمر نوما، وإنما انتظر جَزعًا فزعا عودة أخيه.

فإذا استلقى أخوه على فراشه بعد أن أطفأ مصباحه وأخذ تنفسه المضطرب أو المنتظم يدل على أنه نام، فقد أخذ الصبى يحس الأمن والدعة، ويدير فى نفسه خواطر الآمن الوادع وتفكير الهادئ المطمئن.

وهنالك تتصل يقظته الآمنة بنومه اللذيذ دون أن يشعر بهذا الاتصال.

المناقشة

١. لماذا آثر الصبى الوحدة فى غرفته بالرغم من رغبته فى مجالسة الجماعة ؟

٢. تعددت مصادر المعرفة التى كان الصبى يسعى إليها منذ صغره، وضح ذلك مبينا أثره فى حياته.

٣. كيف كان الصبى يشعر بوحشة الظلمة ؟

٤. لماذا لم يجرؤ الصبى على التعبير عن مخاوفه من تلك الأصوات التى كانت تروعه و تفزعه فى غرفته ؟

٥. كان أذان العشاء يمثل انفراجة للوحشة التى يعيشها الصبى. وضح ذلك.

٤-الحاج على وشباب الأزهر

ولكن صوتين غريبين يردانه فجأة إلى يقظة فزعة: أحدهما صوت عصا غليظة تضرب الأرض ضربا عنيفا، والآخر صوت إنسانى متهدج مضطرب لا هو بالغليظ ولا هو بالنحيف، يذكر الله ويسبح بحمده،ويمد ذكره وتسبيحه مدا طويلا غريبا. وقد سكن كل شىء وشمل هدوء الليل كل شىء، وجعل هذا الصوت الإنسانى ينبعث بين حين وحين متهدجا[1] مرجّعا[2]، تقطعه ضربات العصا على الأرض، وهو يبدو قويا فيذيع فى الليل الهادئ شيئا يشبه الاضطراب، ثم يدنو قليلا قليلا حتى يكاد يبلغ غرفة الصبى، ثم ينحرف ويضعف شيئا فشيئا حتى يكاد ينقطع، ثم يبدو مرة أخرى قويًّا متصلا بعد أن هبط صاحبه سلم «الربع » واستقامت له طريقه فى الحارة، ثم يبعد شيئا فشيئا حتى ينقطع.

وقد ارتاع الصبى لهذا الصوت أو لهذين الصوتين حين سمعهما لأول مرة، وأتعب نفسه فى التفكير فيهما والبحث عن مصدرهما، ولكنه لم يظفر من بحثه بطائل، إلا أنه فقد النوم وأتم ليله مؤرقا مروعا حتى رد الأمن والطمأنينة إلى قلبه صوت المؤذن وهو ينادى:«الصلاة خير من النوم».

فهب الصبى مترفقا ، وهب أخوه عنيفا عجلا ، وما هى إلا دقائق حتى كانا يهبطان السلم ويجدّان فى طريقهما إلى الأزهر، ليسمع أحدهما درس الأصول وليسمع الآخر درس الحديث.

وجعل هذان الصوتان يوقظان الصبى كل يوم فى أول الثلث الأخير من الليل، وجعل الصبى يراع لهذين الصوتين ولا يعرف لهما مصدرا، ولا يجرؤ على أن يسأل أخاه أو غير أخيه عنهما. حتى كانت ليلة الجمعة، فأيقظه الصوتان وروعاه كدأبهما فى كل ليلة، ورد المؤذن إليه الأمن والهدوء كدأبه فى كل صباح، ولكن الصبى لم يهب مترفقا، ولكن أخاه لم

---

(١) مقطعا صوته .

(٢) مرددا صوته ومترنما .

يهب عجلا عنيفا؛ فليس فى فجر الجمعة ولا فى صباحه دروس، وليس الشيخ الفتى ولا الشيخ الصبى فى حاجة إلى أن يقطعا نومهما فأما نوم الصبى فقد قطعه الصوتان. وأما أخوه فلم يسمعهما هذه الليلة كما لم يسمعهما من قبل. ولبث الصبى فى فراشه ضيقا بهذا السكون، عاجزا عن الحركة، مشفقا أن يوقظ أخاه، حتى صُليت الفجر وانتشر ضوء الشمس ونفذت أشعتها إلى الغرفة فاترة، وإذا الصبى يسمع هذين الصوتين مرة أخرى، ولكنه يسمعهما هادئين رفيقين. فأما العصا فتداعب الأرض مداعبة يسيرة، وأما الصوت فيصافح الهواء مصافحة حلوة لا تخلو من فتور. والصبى يعجب لهذين الصوتين اللذين يعنفان حين يسكن الليل وينام الناس ويحسن الرفق، واللذين يرقان ويلطفان حين ينشط النهار ويستيقظ الناس ويتاح للأصوات أن ترتفع وأن تأخذ حظها من الحرية والنشاط. وهو مع ذلك مضطر إلى سكونه، مشفق إن تحرك أن ينبه أخاه، حتى تشتد حرارة الشمس على رأسه فيستوى جالسا فى أناة، ويتزحزح من مكانه فى رفق حتى يبلغ مكانا لا تلفحه حرارة الشمس فيستقر فيه دون أن يتحرك.

وهو بهذا ضيقٌ، وله كاره. وعليه مُكرهٌ، وأخوه مغرق فى نومه لا يفيق، ولكن الباب يطرق طرقاً عنيفاً وصوت من ورائه ينادى مرتفعاً ساخطاً صاخبا: «هلم يا هؤلاء، أفيقوا إلى متى تنامون! أعوذ بالله من الكفر، أعوذ بالله من الضلال! طلاب علم ينامون حتى يرتفع الضحى لا يؤدون الصلاة لوقتها، هلم يا هؤلاء!، أعوذ بالله من الكفر، أعوذ بالله من الضلال! »

ويد هذا الصوت تقرع الباب وعصاه تقرع الأرض، ومن حوله ضحكات ترافقه. وقد هبَّ الشيخ الفتى لأول نبأة، ولكنه ظل فى مكانه ساكنا ثابتا يغرق فى ضحك مكتوم مكظوم كأنه يستحب ما يسمع ويستزيد منه ويريد أن يتصل. فأما الصبى فقد عرف هذا الصوت وهذه العصا. إنه الصوت الذى كان يضطرب فى الليل، وإنها العصا التى كانت تقرع الأرض لتوقظها من نومها. من عسى أن يكون هذا الرجل ؟ وما عسى أن تكون

عصاه ؟ وما هذا الضحك الذى يتبعه ؟ وقد نهض الفتى جاهرا بضحكه فسعى إلى الباب ففتحه، واندفع منه هذا الرجل صاخبا :(أعوذ بالله من الكفر! أعوذ بالله من الضلال! اللهم اصرف عنا الأذى. أعذنا من الشيطان الرجيم، أمسلمون أنتم أم كفار، أتتعلمون على شيوخكم هدى أم ضلالا !)

وقد اندفع معه الشباب من أصحاب الفتى وهم يجأرون بالضحك ويغرقون فيه. وهنالك عرف الصبى هذا الرجل وهو عمِّى الحاج على.

وكان عمى الحاج على رجلا شيخا قد تقدمت به السن حتى جاوز السبعين، ولكنه احتفظ بقوته كلها: احتفظ بقوة عقله فهو ماكر ماهر ظريف لبق، واحتفظ بقوة جسمه فهو معتدل القامة، شديد النشاط، متين البنية، عنيف إذا تحرك، عنيف إذا تكلم، لا يعرف الهمس، ولا يحسن أن يخافت صوته، وإنما هو صائح دائما. وكان عمى الحاج على فيما مضى من دهره — كما علم الصبى فيما بعد — رجلا تاجرا، قد ولد فى الإسكندرية وشب فيها واحتفظ بما لأهل الإسكندرية من قوة وعنف، ومن صراحة وظرف. وكان يتجر فى الأرز، ومن أجل ذلك سمى عمى الحاج على الرزاز. فلما تقدمت به السن أعرض عن التجارة أو أعرضت التجارة عنه.

وكان له بيت فى القاهرة يغل عليه[1] شيئا من مال، فاتخذ لنفسه غرفة فى هذا الربع الذى لم يكن يسكنه من غير المجاورين إلا هذا الرجل وهذان الفارسيان اللذان ذُكِرا فى بعض هذا الحديث.

ولم يكد عمى الحاج على يستقر فى غرفته فى آخر الربع عن شمال إذا صعدت السلم حتى لفت إليه هؤلاء الشباب من طلاب العلم، أضحكهم وراقوه، فاتصلت بينه وبينهم مودة حلوة متينة نقية، فيها ظرف كثير، وفيها رقة وتحفظ يؤثران فى القلوب حقا.فقد كان هذا الشيخ يعرف من

---

(١) يدرّ عليه.

هؤلاء الشباب حبهم للعلم، وجدهم فى الدرس، وصدوفهم[1] عن العبث، وكان يحب منهم ذلك.فإذا بدأ أسبوع العمل لم يسع إليهم، ولم يعرض لهم، حتى كأنه لا يعرفهم إلا أن يسعوا هم إليه، أو يلحوا هم عليه فى أن يشهد معهم طعاما أو يشاركهم فى الشاى. فإذا كان يوم الجمعة لم يمهلهم ولم يخل بينهم وبين أنفسهم، وإنما انتظر بهم حتى يتقدم النهار، وحتى يعلم أنهم قد أرضوا نفوسهم من النوم والراحة.هنالك يخرج من غرفته فيبدأ بأقرب غرف هؤلاء الشباب إليه، فيوقظ صاحبها فى هذا العنف والضجيج اللذين رأيتهما، ثم ينتقل إلى الغرفة التى تليها ومعه صاحبه الذى أيقظه، وما يزال كذلك حتى يبلغ غرفة أخى الصبى فيوقظه على هذا النحو والشباب من حوله فرحون مرحون، يستقبلون يوم راحتهم مبتهجين، قد ابتسموا للحياة وابتسمت لهم الحياة.

وإلى هذا الشيخ كان تدبير طعامهم ولهوهم البرىء فى يوم الجمعة، فهو الذى يقترح عليهم طعام الإفطار وقد يعده لهم فى غرفته أو فى غرفة أحدهم. وهو الذى يقترح عليهم طعام العشاء، ويشير عليهم بما ينبغى أن يصنعوا لإعداده، ويشرف على هذا الإعداد، ويُقَوِّم منه ما يمكن أن يعوج، يصحبهم صباحهم، ثم يفارقهم ليصلى الجمعة، ثم يصحبهم، حتى إذا وجبت العصر فارقهم لحظة، ثم يعود إليهم فيشاركهم فى عشائهم وفيما يكون بعده من الشاى، ثم إذا وجبت المغرب أَمَّهم فى صلاتهم، فإذا وجبت العشاء فارقهم ليعدوا الدروس التى سيسمعونها من الغد.

وكان عمى الحاج على يتكلف التقوى والورع، ويظهر ذلك إلى أقصى ما يظهر الناس تكلفهم وتصنعهم يبدأ بهذه الغزوة التى يجددها فى الثلث الأخير من كل ليلة، فيخرج من غرفته صاخبا صائحا بذكر الله والتسبيح بحمده، ضاربا الأرض بعصاه حتى يبلغ مسجد سيدنا الحسين،

---

(١) إعراضهم وانصرافهم

فيقرأ فيه ورد السحر، ويشهد فيه صلاة الفجر، ثم يرجع متمتمًا مهمهمًا مداعبا الأرض بعصاه فيستريح فى غرفته. فإذا وجبت الصلوات أداها فى غرفته وقد فتح بابها وجهر بالقراءة والتكبير ليسمعه أهل الربع جميعًا، فإذا خلا إلى أصحابه الشباب على طعامهم أو على شايهم أو فى بعض سمرهم، فهو أسرع الناس خاطرا، وأظرفهم نكتة، وأطولهم لسانًا، وأخفهم دعابة، وأشدهم تتبعًا لعيوب الناس، وأعظمهم إغراقًا فى الغيبة، لا يتحفظ فى لفظ، ولا يتحرج من كلمة نابية، ولا يتردد فى أن يجرى على لسانه المنطلق دائما وبصوته المرتفع دائمًا أشنع الألفاظ، وأشدها إغراقًا فى البذاء، وأدلها على أبشع المعانى وأقبح الصور.

وكان أولئك الشباب يحبونه على ذلك، أو يحبونه من أجل ذلك أوقل إنهم يحبون ذلك منه أشد الحب، ويكلفون به أعظم الكلف، كأنه كان يخرجهم من أطوارهم، ويريحهم من جد العلم والدرس، ويفتح لهم بابًا من اللهو ما كانوا يستطيعون أن يلجوه حين كانوا يخلون إلى أنفسهم، بل ما كانوا يستطيعون أن يلجوه حين كانوا يلتفون حول هذا الرجل الشيخ، وحين كان يصب عليهم هراءه هذا بغير حساب كانوا يسمعون ذلك منه ويضحكون له، حتى إن جنوبهم لتكاد تنقدُّ من الضحك، ولكنهم على ذلك لم يكونوا يعيدون على الشيخ كلمة من كلماته البذيئة أو لفظًا من ألفاظه النابية، فكأنما كانوا يرون شيئا يعجبهم ويلهيهم فيستمتعون به من بعيد، ولا يبيحون لأنفسهم أو لا تبيح لهم ظروفهم أن يدنوا منه أو يسعَوا إليه.

ولم يكن ذلك يدل على أقل من هذه الصفة الغريبة الخليقة بالإعجاب والرحمة معًا، والتى كان هؤلاء الشباب يمتازون بها من كثير من زملائهم وأقرانهم: وهى كظم الشهوات وأخذ النفس بألوان من الشدة تمكنهم من المضى فى الدرس على وجهه، وتردهم عن التورط فيما كان كثير من زملائهم يتورطون فيه من هذا العبث السهل الذى يفل الجد ويفتر العزائم ويفسد الأخلاق.

وكان الصبى يسمع لهذا كله فيفهم ويحفظ ويعجب، ويسأل نفسه كيف يجتمع طلب العلم وما يحتاج إليه من الجد مع هذا التهالك على الهزل والتساقط على السخف فى غير تحفظ ولا احتياط!؟ وكان يعاهد نفسه على أنه إذا شب وبلغ طور هؤلاء الطلاب الذين يكبرهم ويقدِّر ذكاءهم فلن يسير سيرتهم ولن يتهالك على العبث كما يتهالكون عليه.

وكان يوم الجمعة يوم البطون فى حياة هؤلاء الطلاب وفى حياة صديقهم الشيخ. فكانوا إذا أصبحوا اجتمعوا إلى إفطار غزير دسم صاخب، قوامه الفول والبيض ثم الشاى، وما كانوا قد ادخروا من هذه الفطائر الجافة التى كانت أمهاتهم يزودنهم بها ويضعن فى صنعها وفى تعبئتها قلوبهن الساذجة وما يملؤها من حب وعطف وحنان. وكم ذكر الصبى جهد أبيه فى كسب ما لم يكن بد من كسبه من النقد لتستطيع أمه أن تهيئ لابنيها زادهما، وجد أمه فى صنع هذا الزاد وتكلفها الفرح وهى تهيئه، وحزنها الصامت وهى تعبئه، ودموعها المنهمرة وهى تسلم أحماله إلى من سيذهب به إلى القطار.

كم ذكر الصبى هذا كله حين كان هؤلاء الشباب يلتهمون هذا الزاد التهاما، يغمسونه فى الشاى كما كان يوصيهم الشيخ، أو يقضمونه بأسنانهم وأضراسهم قضمًا، ثم يعبون فى أكواب الشاى ليبلوه فى أفواههم ولتسيغه حلوقهم بعد ذلك سهلا هنيئًا، وهم فى أثناء ذلك يتضاحكون من دعابة الشيخ وفكاهته،لا يذكرون آباءهم وما جدوا، ولا يذكرون أمهاتهم وما اختملن من كد وما ذرفن من دموع.

وكان الشيخ وأصدقاؤه الطلاب يدبِّرون عشاءهم أثناء الدورة الثانية والثالثة من الشاى الذى يقبلون عليه بعد الإفطار. وكان تدبيرهم لهذا العشاء يقبض نفس الصبى ويملؤها خجلا، فلما فكر فيه بعد أن تقدمت به السن وجد لذكراه حنانا وإعجابا.كانوا يتداولون ويتشاورون. ولم يكن ميدان

مداولاتهم ومشاوراتهم واسعا ولا عريضا.وإنما هما لونان من ألوان الطعام لم يشذوا عنهما قط: فإما البطاطس فى خليط من اللحم والطماطم والبصل، وإما القرع فى خليط من اللحم والطماطم والبصل وشيء من الحمص. وكانوا يتفقون على أقدار ما يشترون من هذه الأصناف كلها، ثم يقدرون ثمن ما سيشترون، ثم يخرج كل منهم حصته من هذا الثمن إلا الشيخ فكانوا يخرجونه من هذه الغرامة. فإذا اجتمع لهم ما يحتاجون إليه من نقد،ذهب أحدهم فاشترى لهم طعامهم. فإذا عاد بما اشترى نهض أحدهم إلى موقده فأوقد فيه ناره من هذا الفحم البلدى، حتى إذا صفت جذوته أقبل على الطعام يهيئه وأصحابه ينظرون إليه مجتمعين أو متفرقين، والشيخ يلقى إليه نصائحه بين حين وحين حتى إذا تم له من تهيئة الطعام ما أراد خلّى بينه وبين هذه النار تنضجه على مهل، واجتمع القوم إلى صديقهم الشيخ يعبثون، أو إلى أنفسهم يدرسون، وطاهيهم يخطف نفسه بين حين وحين ليلقى نظرة على هذا الطعام مخافة أن يحترق أو يفسد، وليلقى عليه بين حين وحين قطرات من ماء. وكلهم يتنسم هذه الرائحة الذكية التى تبعثها النار من هذا الطعام كلما تقدمت به إلى الإنضاج، وكلهم يجد فى تنسم هذه الرائحة مقدمة لذيذة لعشاء لذيذ.ومن المحقق أنهم لم يكونوا وحدهم يصطنعون هذا الطعام، وإنما كان لهم فى الربع زملاء يصطنعون مثله ويتنسمون رائحته مثلهم. ومن المحقق أيضا أن قد كان لهم فى الربع زملاء تقصر بهم ذات أيديهم عن أن يصنعوا لأنفسهم من الطعام مثل ما كانوا يصنعون. ومن المحقق أيضا أن هؤلاء العمال الذين كانوا يسكنون الدور السفلى من الربع كانت تقصر بهم ذات أيديهم عن أن يطرفوا أنفسهم وأبناءهم ونساءهم بمثل هذا الطعام. وأكبر الظن أنهم كانوا يجدون من نسائهم لهذا الحرمان همًّا ثقيلا. وأكبر الظن أن هؤلاء المحرومين من الطلاب والعمال كانوا يجدون فى هذه الروائح التى كانت تملأ الربع يوم الجمعة لذة مؤلمة أو ألمًا لذيذًا.

وكانت نار هذا الفحم البلدى بطيئة طويلة البال، فكان ذلك يطيل لذة قوم ويمد ألم آخرين. حتى إذا صليت العصر ودعيت الشمس إلى الغروب كان الطعام قد نضج، فاجتمع القوم حول مائدتهم وأقبلوا على طعامهم فى نشاط يشبه الجد الهازل أو الهزل الجاد. كلهم حريص على أن يستوفى حظه من هذا الطعام، وكلهم يراقب أصحابه أن يسبقوه أو يشتطوا عليه، وكلهم يستحيى أن يظهر هذا الحرص أو يبدى هذه المراقبة. ولكن الشيخ معهم، فصراحته تغنى عن صراحتهم، وهزله يفضح ما أسروا من الجد، فهو يراقبهم جميعا،وهو يقسم الطعام بينهم بالعدل، وهو يصد أحدهم إن همَّ أن يجور على أصحابه، لا يخفى ذلك ولا يتحفظ فيه، وإنما يعلنه صاخبًا كعادته، منبها هذا إلى أنه يخدع نفسه عن قطعة البطاطس بقطعة اللحم، ومنبهًا ذاك إلى أنه يسرف على نفسه وعلى أصحابه بما يغترف فى لقمته الغليظة من جامد الطعام أو سائله، مرسلا ألفاظه إلى هذا وذاك فى هزل يخف على أسماعهم ويحسن موقعه من نفوسهم، ويضحكهم ولا يؤذيهم فيما ينبغى لهم من الحياء.

والصبى فى أثناء هذه المعركة الضاحكة خجل وجل، مضطرب النفس مضطرب حركة اليد، لا يحسن أن يقتطع لقمته، ولا يحسن أن يغمسها فى الطبق، ولا يحسن أن يبلغ بها فمه. يخيل إلى نفسه أن عيون القوم جميعا تلحظه، وأن عين الشيخ خاصة ترمقه فى خفيةٍ، فيزيده هذا اضطرابا، وإذا يده ترتعش، وإذا بالمرق يتقاطر على ثوبه، وهو يعرف ذلك ويألم له ولا يحسن أن يتقيه. وأكبر الظن بل المحقق أن القوم كانوا فى شغل عنه بأنفسهم. وآية ذلك أنهم يفكرون فيه ويلتفتون إليه ويحرضونه على أن يأكل ويقدمون إليه ما لا تبلغه يده، فلا يزيده ذلك إلا اضطرابا واختلاطا، وإذا هذه المعركة الضاحكة مصدر ألم لنفسه وحزن لقلبه، وكانت خليقة أن تسره وأن تضحكه، ولكنها إن آذته فى أثناء الطعام فقد

كانت تسره وتسليه وتضطره أحيانا إلى أن يضحك وحده إذا خلا إلى نفسه بعد أن يشرب الجماعة شايهم وينتقلوا إلى حيث يدرسون أو يسمرون.

وكذلك أنفق هؤلاء الشباب أعواما طويلة مع هذا الشيخ. وشب الصبى فى هذه الحياة الضاحكة بفضل الشيخ عَلىّ، على رغم ما كان يعترض طريقها من أسباب الألم والأسى.

ثم تفرقت الجماعة، وذهب كل من هؤلاء الشباب لوجهه، وتركوا الربع واستقروا فى أطراف متباعدة من المدينة، وقلت زيارتهم للشيخ، ثم انقطعت، ثم تناسوه ثم نسوه.

وفى ذات يوم حمل إلى أفراد هذه الجماعة نعى الشيخ، فحزنت قلوبهم ولم يبلغ الحزن عيونهم، ولم يرسم آياته على وجوههم. وأخبر المخبر الصادق أن آخر كلمة نطق بها الشيخ وهو يحتضر إنما كانت دعاءه لأخى الصبى.

فرحم الله عمى الحاج على! لقد كان ظله على الصبى ثقيلا وإن ذكره ليملأ قلبه بعد ذلك رحمة وحنانا.

المناقشة

١. اذكر أهم سمات الحاج على كما ذكرها الكاتب مبينا أهم التناقضات الواضحة فيها.

٢. كيف تأثر الصبى بذلك التناقض الواضح فى حياة الحاج على ؟

٣. ما الذى جعل الصبى يصف الحاج عليا بتكلف التقوى و الورع؟

٤. لماذا كان الشباب يحبون الحاج عليا و يقبلون عليه ؟ و كيف فسر الصبى علاقتهم به ؟

٥. «و كانت نار هذا الفحم البلدى بطيئة طويلة البال، فكان ذلك يطيل لذة قوم و يمد ألم آخرين ». فسر هذه العبارة فى ضوء فهمك لما يريده الكاتب.

٦. كيف كانت معركة الأكل الضاحكة مصدر ألم لنفس الصبى ؟

٧. اختلفت أحاسيس الصبى نحو معركة الطعام الضاحكة بين حزن وفرح. اشرح ذلك.

....

وغرفة أخرى من غرفات هذا الربع كانت تقوم فيه غير بعيد عن شمالك إذا صعدت السلم، وكانت مصدر فكاهة ودعابة ولهو لهؤلاء الشباب أيضًا.

كان يسكنها شاب لعله كان أكبر من هؤلاء الطلاب شيئا،وقد كان أقدم منهم عهدا بالأزهر، ولكنه كان من جيلهم ومن طبقتهم على كل حال. كان نحيف الصوت يكفى أن تسمعه لتضحك من صوته. وكان ضيق العقل لم يأذن الله للون من ألوان العلم أن يستقر فى رأسه لأن عقله كان محدودا محصورا. وكان قصير الذكاء لم يأذن الله لذهنه أن ينفذ إلى أقرب شىء وراء ما كان يقرأ فى الكتب على اختلافها. وكان مع ذلك واسع الثقة بنفسه بعيد الطمع فى مستقبله مطمئنا فى غير تكلف إلى أنه كأصحابه هؤلاء الذين يعيش معهم ويشاركهم فى أكثر ما يختلفون إليه من الدروس.

كان يشهد معهم درس الفقه ودرس البلاغة ودرس الأستاذ الإمام، ولم يكن يخف لدرس الأصول؛ لأن هذا الدرس كان يقتضيه أن يخرج من غرفته مع الفجر، وقد كان لراحته مؤثرا [1] وبها ضنينًا[2]. وكان يشارك أصحابه فى بعض مطالعتهم، وكان يشاركهم بنوع خاص فى هذه المطالعات التى لا تتصل بالدروس المنظمة ولا بالكتب التى كان الشيوخ يقرءونها.

فقد كان هؤلاء الشبان يضيقون بكتب الأزهر ضيقا شديدًا، يتأثرون فى ذلك برأى أستاذهم «الإمام » فى كتب الأزهر ومناهجه. وكانوا يسمعون من الأستاذ الإمام حين يشهدون درسه أو حين يزورونه فى داره أسماء كتب قيمة فى النحو والبلاغة والتوحيد والأدب أيضًا وكانت هذه الكتب القيمة بغيضة إلى شيوخ الأزهر لأنهم لم يألفوها، وربما اشتد بغضهم لهذه

---

(١) مفضلا .

(٢) بخيل ، وجمعها أضناء .

الكتب لأن الأستاذ الإمام قد دل عليها ونوّه بها. وكان الذين ينافسون الأستاذ الإمام من الشيوخ الأعلام يحاولون أن يذهبوا مذهبه فيدلون طلابهم على كتب قيمة أخرى، لا تقرأ في الأزهر لأن الأزهريين لم يألفوا قراءتها. وكان هؤلاء الطلاب لا يكادون يسمعون اسم كتاب من هذه الكتب حتى يسرعوا إلى شرائه إن وسعهم ذلك، وربما كلفوا أنفسهم في هذا الشراء جهدًا ثقيلاً وحرمانًا شديدًا. فإن أعياهم ذلك استعاروه من مكتبة الأزهر، ثم أقبلوا عليه ينظرون فيه، ثم اتفقوا على أن يقرءوه جماعة، ويتعاونوا على فهمه.

كان يدفعهم إلى ذلك حبهم الصادق للأستاذ الإمام ورغبتهم الصادقة في العلم والاطلاع وربما دفعهم إلى ذلك مع هذه العاطفة شيء من غرور الشباب؛ فقد كانوا يفخرون بتلمذتهم للأستاذ الإمام وللشيخ بخيت وللشيخ أبي خطوة وللشيخ راضي، وكانوا يملأون أفواههم بأنهم تلاميذ هؤلاء الأئمة وبأنهم من تلاميذهم المقربين المصطفين. ولم يكونوا يكتفون بالاختلاف إلى هؤلاء الشيوخ في دروسهم، وإنما كانوا يزورون شيوخهم في بيوتهم، وربما شاركوهم في بعض البحث، وربما استمعوا منهم دروسًا خاصة في يوم الخميس بعد أن تُصلى الظهر أو بعد أن تُصلى العشاء وكانوا لا يكرهون أن يَعرف عنهم زملاؤهم هذا كله، وأن يتحدث عنهم زملاؤهم بأنهم يقرءون فيما بينهم هذا الكتاب أو ذاك في هذا الفن أو ذاك. وكانوا قد وصلوا بهذا كله إلى شيء ظاهر من الامتياز بين زملائهم، حتى عُرفوا في الأزهر كله بأنهم أنجب طلاب الأزهر وأخلقهم بالمستقبل السعيد. فكان من المعقول أن يسعى إليهم الأوساط من زملائهم يلتمسون التفوق في الاتصال بهم والامتياز حين يعرف الناس أنهم من أصدقائهم وأصفيائهم، ويلتمسون بذلك الوسيلة إلى أن يتصلوا بكبار الشيوخ وأئمة الأساتذة وكان صاحبنا من هؤلاء الطلاب الأوساط، قد اتصل بهذه الجماعة من الطلاب، ليقول زملاؤه

إنه واحد منهم، وليستطيع بحكم هذه الصلة أن يصحبهم فى زياراتهم للأستاذ الإمام أو الشيخ بخيت.

وكان غرور الشباب يحبب إلى هذه الجماعة هذا النوع من الامتياز، ويهون عليها قبول هؤلاء الطفيليين فى العلم من ضعاف الطلاب وأوساطهم، ثم يتيح لهم بعد ذلك، حين يخلون إلى أنفسهم وقد أحصوا على هؤلاء الزملاء جهالاتهم وسخافاتهم وأغلاطهم الشنيعة، أن يعيدوا ذلك وأن يضحكوا منه ملء أفواههم وملء جُنُوبهم أيضا وأكبر الظن أن صاحبهم هذا قد عرفهم فى بعض الدروس، فما زال يدنى نفسه منهم حتى اتصل بهم فزارهم، ثم أعجبه ربعهم وأعجبه جواره لهم فى هذا الربع، فاتخذ فيه غرفة وأصبح واحدًا منهم، يشاركهم فى الدرس، ويشاركهم فى الشاى، ويشاركهم فى الزيارات ويشاركهم فى بعض الشهرة، لكن الله لم يفتح عليه قط بأن يشاركهم فى العلم والفهم، وفى الإبانة والإيضاح. ويظهر أنه كان أوسع منهم يدًا، وأكثر منهم مالا، أو قل إنه كان يقتر على نفسه إذا خلا إليها، فإذا اتصل بأصحابه يسر على نفسه وأنفق عن سعة وربما كان يشعر بحاجتهم إلى النقد لشراء كتاب، أو لأداء دين عاجل، أو لإرضاء حاجة ملحة؛ فيقدم إليهم من ذلك ما يريدون رفيقا بهم متلطفا لهم وكانوا يعرفون ذلك له ويحمدونه، ولكنهم لم يكونوا يطيقون جهله، وربما لم يملكوا أنفسهم فضحكوا من هذا الجهل بمحضر منه، وردوا عليه سخفه ردًا عنيفا فيه كثير من الازدراء[1] القاسى ولكنه كان يقبل ذلك راضيًا، ويتلقّاه باسمًا. وما أظن أنهم قد عرفوا فى وجهه الغضب يومًا على كثرة ما كانوا يُثقلون عليه بالخَضّ منه[2] والازدراء له. وكان أجمل ما كانوا يتندرون به عليه علمه بالعروض أو جهله بالعروض فكلاهما سواء. كان يطالع معهم

(١) التحقير.
(٢) الحط من قدره.

كتاباً فى النحو، فلا يكاد يعرض لهم شاهد — وما أكثر ما تعرض الشواهد فى كتب النحو! — حتى يكون أسرعهم إلى رد هذا الشاهد إلى بحر من أبحر العروض، لم يكن يختلف قط وإنما كان «البسيط» دائما. وقد يكون البيت من «الطويل» وقد يكون من «الوافر»، وقد يكون من أى بحر من أبحر الشعر ولكنه كان «بسيطاً» دائما.

والغريب أنه لم يكن يكتفى بالإسراع إلى إعلان أن هذا البيت من البسيط، وإنما كان يسرع فيأخذ فى تقطيع البيت يرده إلى البسيط، مهما يكن وزنه، فيقطع على الجماعة درسهم، ويدفعهم إلى بحر من الضحك لا يكاد يعرف له حد. وقد كثر منه ذلك حتى أغرى به أصحابه وأطمعهم فيه؛ فكانوا كلما عرض لهم بيت من الشعر أظهروا العجز عن رده إلى وزنه حتى ينبئهم صاحبهم بأنه من البسيط فإذا فعل أظهروا العجز عن تقطيع البيت حتى يأخذ صاحبهم فى تقطيعه فيرده إلى البسيط، وهناك يستأنفون الضحك، ويستأنفون الاستهزاءَ، ويلقاهم هو بهذه الابتسامة الراضية التى لا تعرف الغضب ولا الغيظ.

وقد أقام هذا الشاب على ذلك مع أصدقائه أعواما طوالا لم يغاضبهم ولم يغاضبوه. وكأنه أحس آخر الأمر أنه ليس من تلك الحلبة، وأنه لا يستطيع أن يجرى فى ذلك الميدان؛ فأخذ يتخلف قليلا قليلا عن الدروس، ويتكلف التعلاتَ والمعاذير، لا يشارك القوم فى مطالعتهم، ويكتفى بالمشاركة فى الشاى والطعام أحيانًا والزيارات دائمًا.

وقد تقدمت السن بالصبى فى أثناء ذلك، وتقدم به الدرس أيضا، وإذا هذا الشاب يظهر العطف عليه والقدر له، وإذا هو يعرض عليه أن يقرأ معه الكتب، ويعرض عن مشاركة أقرانه وأنداده إلى مشاركة هذا الغلام الناشئ، ويأخذ الغلام فى أن يقرأ معه كتبا فى الحديث وأخرى فى المنطق

وأخرى فى التوحيد، ولكنه لا يجد عنده غناء. وليس الغلام فارغا للضحك منه والتندر به، وليس هو قادرا على ذلك ولا راغبًا فيه، وإذا هو يحتال فى التخلص منه والمضى لشأنه.

وإذا هذا الرجل يترك العلم أو يتركه العلم، ولكنه يظل محسوبا على الأزهر طالبا فيه مشاركا لأصحابه فى الناحية الاجتماعية من حياتهم. وقد ارتقت حياتهم بعض الشيء؛ رقّاها ذكاؤهم وجدهم وتفوقهم ورضا الأستاذ الإمام عنهم وتقريبه إياهم، وإذا هم يتصلون بفلان وفلان من أبناء الأسر الغنية الثرية الذين كانوا يطلبون العلم فى الأزهر إذا ذاك، وإذا الزيارات تتصل بينهم وبين هؤلاء الشبان الأغنياء الأثرياء، وصاحبهم معهم يزور ويزار، وترتقي حياته الاجتماعية كما ارتقت حياة أصحابه. ولكن أصحابه لا يحسون هذا الارتقاء ولا يكادون يشعرون به. وهم إذن لا يتحدثون به ولا يتمدحون بزياراتهم لتلك البيوت الممتازة وجلوسهم إلى أصحابها النابهين، وإنما يرون ذلك شيئا طبيعيا مألوفا فأما صاحبهم فهو الذى يراه المجد كل المجد، ويستمد منه الغبطة [1] كل الغبطة والغرور كل الغرور، ويستغله لبعض منافعه المادية أحيانًا، ويتحدث به دائمًا إلى من أراد أن يسمع له ومن لم يرد.

وتمضى الأيام ويتفرق هؤلاء الطلاب، وقد أخذ كل واحد منهم طريقه فى الحياة. ولكن هذا الرجل لا ينساهم ولا يسمح لهم أن ينسوه. قد عجز عن تتبعهم فى العلم فليتتبعهم فى غيره مما تمتلئ به الحياة، يزورهم وإن لم يزوروه، ويلقاهم فى زيارتهم عند فلان أو فلان من أصحاب المنزلة والثراء.

وقد خرج الأستاذ الإمام من الأزهر فى تلك المحنة السياسية المعروفة، وإذا صاحبنا متصل بالأستاذ وشيعته، متصل بخصوم الأستاذ

---

(١) تمنى النعمة من غير أن يتمنى زوالها عن صاحبها.

الإمام وشيعتهم أيضًا. وقد أخذ الأزهر يضطرب، ودخلت السياسة فى ذلك الاضطراب، واختصمت فيه السلطتان، وإذا صاحبنا يتصل بالمضربين مشاركًا لهم فى الإضراب، ويتصل بخصوم الإضراب مفشيا لهم أسرار المضربين. ويتكشف الأمر ذات يوم، ويا له من يوم! عن أن صاحبنا قد كان متصلا بالمحافظة، فتتقطع الصلة قطعا عنيفا بينه وبين أصدقائه، ويرد عن البيوت التى كان يسعى إليها ويستقبل فيها، ويقبع فى غرفته تلك فى الربع قد خسر الناس جميعًا ولم يخسره أحد وقد قصرت به همته عن درجة الأزهر فهو ينفق حياته الخاملة وحيدًا بائسًا محتملا خموله على مضض[1] مكتسبًا عيشه فى مشقة.

ثم ينبىء المنبئ ذات يوم بأنه قد مات. أمات من علّة ؟ أمات من حسرة ؟ أم مات من الحرمان ؟ ولكن أصدقاءه يسمعون النّعى فلا يأخذهم وجوم، ولا يمس نفوسهم حزن، وإنما يتلون هذه الآية الكريمة التى نتلوها دائما حين يُنْعى إلينا الناس: «إنا لله وإنا إليه راجعون »

المناقشة

١. ما موقف الإمام محمد عبده من كتب الأزهر ؟ و كيف كان يعبر عن ذلك ؟

٢. ما الوسائل التى اتبعها الشباب الأزهريون الذين يتحدث عنهم الكاتب للتميز و العلم والبحث ؟

٣. كيف كان الشاب الأزهرى صاحب الشباب يتقرب إليهم ؟

٤. اعرض لبعض المواقف التى تبين جهل ذلك الشاب و غباءه كما وصفه الكاتب.

٥. «و إذا هذا الرجل يترك العلم أو يتركه العلم. «يترك العلم» و«يتركه العلم» بين أوجه الاختلاف بين التعبيرين، و أيهما أجمل؟ و لماذا؟

٦. لماذا قاطع الشباب صاحبهم ؟ و ما أثر ذلك فى حياته ؟

---

(١) الألم.

٦ـ انتساب الصبى للأزهر

على هذا الربع أقبل الصبى، وفى هذه البيئة عاش. وأكبر الظن أن ما اكتسب فيهما من العلم بالحياة وشؤونها والأحياء وأخلاقهم لم يكن أقل خطرًا مما اكتسبه فى بيئته الأزهرية من العلم بالفقه والنحو والمنطق والتوحيد.

ولم يكد الصبى يستقر فى ربعه يومين أو ثلاثة، حتى أسلمه أخوه إلى أستاذ كان قد ظفر بالدرجة أثناء الصيف، وكان سيبدأ الدرس ويجلس مجلس الأستاذ من صغار التلاميذ لأول مرة فى حياته. وكان قد بلغ الأربعين أو كاد يبلغها. وكان معروفًا بالتفوق مشهورًا بالذكاء، وقد غالب الحظ فغلبه، وإن لم يكن انتصاره على الحظ ملائمًا لحقه فى الفوز؛ فقد ظفر بالدرجة الثانية، وعد هذا انتصارًا، وقصر عن الدرجة الأولى وعد هذا ظلما. وكان ذكاؤه مقصورًا على العلم، فإذا تجاوزه إلى الحياة العملية فقد كان إلى السذاجة أدنى منه إلى أى شيء آخر. وكان يعرف بين أصدقائه الطلاب والعلماء بأنه محب لبعض لذاته المادية متهالك عليها، يفرض عليه مزاجه ذلك ولا تفرضه عليه رذيلة أو فساد خلق مألوف. وكان كثير الأكل قد شهر بأنه يتهالك[1] على اللحم ولا يستطيع أن ينقطع عن أكله والإسراف فيه يومًا واحدًا وكان ذلك يكلفه عناء كثيرًا.

وكان إلى هذا غريب الصوت إذا تحدث. كان صوته متهدجا متكسرا يُقَطِّع الحروف تقطيعًا، ويتراكم مع ذلك بعضه فوق بعض، وتنفرج شفتاه عن كلامه أكثر مما ينبغى، فلا يكاد يسمعه المتحدث إليه حتى يضحك، ولا يكاد يمضى فى الحديث معه حتى يقلد فتور صوته وتكسره وانفراج الشفتين عنه.

ولم يكد يظفر بدرجة العالمية حتى أسرع إلى شارة العلماء فاتخذها ولبس «الفراجية» متعجلا لبسها، ولم يكن العلماء يتخذون هذه الشارة

---

(١) يقبل على الشيء فى حرص شديد.

إلابعد أن يبعد عهدهم بالدرجة وتعرف لهم فى العلم سابقة وقدمه تيسر لهم حياتهم المادية شيئا.

ولكن صاحبنا أسرع إلى «الفراجية » فلبسها وأضحك منه أصحابه من الطلاب وأساتذته من الشيوخ. وزادهم ضحكًا منه وتندراً عليه أنه كان يلبس الفراجية ويمشى حافيا[1] فى نعليه، إن صح هذا التعبير لايتخذ الجوارب عجزاً منه عنها أو زهدًا منه فيها. وكان إذا مشى فى الشارع تثاقل وتباطأ واصطنع وقار العلماء وجلال العلم، فإذا خطا عتبة الأزهر ذهب عنه وقاره وفارقته أناته ولم يمش إلا مهرولا.

وقد عرف الصبى رجليه قبل أن يسمع صوته؛ فقد أقبل على مكان درسه لأول مرة مهرولا كما تعوّد أن يمشى، فعثر بالصبى وكاد يسقط من عثرته، ومست رجلاه العاريتان اللتان خشن جلدهما يد الصبى فكادت تُقْطَع. ثـم مضى حتى جلس وأسند لأول مرة ظهره إلى ذلك العمود الذى تمنى أن يسند ظهره إليه معلما.

وكان كغيره من أقرانه فى ذلك الوقت بارعًا فى العلوم الأزهرية كل البراعة، ساخطًا على طريقة تعليمها سخطًا شديدًا. قد بلغت تعاليم الأستاذ الإمام قلبه فأثرت فيه، ولكنها لم تصل إلى أعماقه؛ فلم يكن مجددا خالصا ولا محافظا خالصا، وإنما كان شيئا بين ذلك وكان هذا يكفى لينظر الشيوخ إليه شزرا وليلحظوه فى شيء من الريبة والإشفاق. ولم يكد يبدأ درسه الأول فى الفقه حتى أعلن إلى تلاميذه أنه لن يقرأ لهم كتاب «مراقى الفلاح على نور الإيضاح » كما تعود الشيوخ أن يقرءوا للتلاميذ المبتدئين، ولكنه سيعلمهم الفقه فى غير كتاب بمقدار ما فى «مراقى الفلاح ». فعليهم إذا أن يسمعوا منه ويفهموا عنه، وأن يكتبوا مايحتاجون إلى كتابته من المذكرات. ثـم أخذ فى درسه فكان قيما ممتعا،

---

(١) يرتديه بلا جورب

وسار هذه السيرة فى درس النحو، فلم يقرأ للتلاميذ «شرح الكفراوى »، ولم يعلمهم الأوجه التسعة لقراءة بسم الله الرحمن الرحيم وإعرابها، وإنما هيأهم للنحو تهيئة حسنة، وعرفهم الكلمة والكلام والاسم والفعل والحرف؛ فكان درسه سهلا ممتعا أيضا.

وسئل الصبى أثناء شاى العصر عما سمع من أستاذه فى الفقه والنحو، فلما أعاد على أخيه وأصحابه ما سمع رضيت الجماعة عن الشيخ وعن منهجه وأقرت طريقته فى التعليم. وجعل الصبى يختلف إلى هذين الدرسين لا يتجاوزهما أيامًا لا يذكر عددها، ولكنه كان يسأل نفسه متى ينتسب إلى الأزهر ويصبح طالبا مقيدا فى سجلاته؛ فلم يكن فى هذه الأيام إلا صبيا يستمع إلى هذين الدرسين استماعا منظما محتوما، ويستمع إلى درس الحديث الذى كان يلقى بعد صلاة الفجر لا لشيء إلا لأنه كان ينتظر أن يفرغ أخوه من درس الأصول وأن يحين الوقت الذى فيه درس الفقه.

وقد أقبل اليوم المشهود، فأُنبئ الصبى بعد درس الفقه أنه سيذهب إلى الامتحان فى حفظ القرآن توطئة لانتسابه إلى الأزهر ولم يكن الصبى قد أنبئ بذلك من قبل، فلم يتهيأ لهذا الامتحان ولو قد أنبئ به لقرأ القرآن على نفسه مرة أو مرتين قبل ذلك اليوم، ولكنه لم يفكر فى تلاوة القرآن منذ وصل إلى القاهرة. فلما أنبئ بأنه سيمتحن بعد ساعة خفق قلبه وجلا[1]، وسعى إلى مكان الامتحان فى زاوية العميان خائفا أشد الخوف مضطرب النفس أشد الاضطراب، ولكنه لم يكد يدنو من الممتحنين حتى ذهب عنه الوجل فجأة، وامتلأ قلبه حسرة وألما، و ثارت فى نفسه خواطر لاذعة لم ينسها قط، فقد انتظر أن يفرغ الممتحنان من الطالب الذى كان أمامهما، وإذا هو يسمع أحد الممتحنين يدعوه بهذه الجملة التى وقعت من أذنه ومن قلبه أسوأ وقع: «أقبل يا أعمى ».

---

(١) خائفا فزعا.

ولولا أن أخاه أخذ بذراعه فأنهضه فى غير رفق وقاده إلى المتحنين فى غير كلام، لما صدق أن هذه الدعوة قد سيقت إليه؛ فقد كان تعود من أهله كثيرًا من الرفق به وتجنبا لذكر هذه الآفة بمحضره. وكان يقدر ذلك وإن كان لم ينس قط آفته ولم يُشغل قط عن ذكرها. ومع ذلك فقد جلس أمام المتحنين وطُلب إليه أن يقرأ سورة الكهف، فلم يكد يمضى فى الآيات الأولى منها حتى طُلب إليه أن يقرأ سورة العنكبوت، فلم يكد يمضى فى الآيات الأولى منها حتى قال له أحد المتحنين: «انصرف يا أعمى، فتح الله عليك».

وقد دهش الصبى لهذا الامتحان الذى لا يصور شيئًا ولا يدل على حفظ وقد كان ينتظر على أقل تقدير أن تمتحنه اللجنة على نحو ما كان يمتحنه أبوه الشيخ. ولكنه انصرف راضيا عن نجاحه، ساخطا على ممتحنيه، محتقرا لامتحانهما. ولم يخرج من زاوية العميان قبل أن يعطف به أخوه على بعض أركانها فتلقاه هناك أحد الفراشين، أو أحد «المشدين» بلغة ذلك الوقت، فأخذ ذراعه اليمنى، وأدار حول معصمه سوارًا من الخيط جمع طرفيه بقطعة مختومة من الرصاص، وقال له: انصرف فتح الله عليك.

ولم يفهم الصبى لهذا السوار معنى، ولكن أخاه أنبأه بأن هذا السوار سيظل حول معصمه أسبوعا كاملا حتى يمر أمام الطبيب الذى سيمتحن صحته ويقدر سنه ويطعمه التطعيم الواقى من الجدرى.

وقد كان الصبى خليقا أن يبتهج بهذا السوار الجديد الذى كان يدل على أنه مرشح للانتساب إلى الأزهر، قد جاز المرحلة الأولى من مراحله، لولا أنه ظل مشغولا عن السوار بدعوة الممتحن له وصَرْفِه إياه. وأنفق أسبوعه كما تعود أن ينفق أيامه، مستيقظا على صوت عمى الحاج على، ذاهبا إلى الأزهر مع الفجر، عائدا منه بعد درس الفقه، ثم ذاهبا إلى الأزهر

مع الظهر، ثم راجعا منه بعد درس النحو، ثم مقيما فى مجلسه ذاك، فنائما فى مجلسه ذاك، فغاديًا على الأزهر حين يسمع نداء المؤذن بأن الصلاة خير من النوم، وجاء يوم الامتحان الطبى، فذهب إليه الصبى وفى نفسه شيء من الإشفاق أن يدعوه الطبيب كما دعاه الممتحن. ولكن الطبيب لم يدعه لأنه لم يكن يدعو أحدا، وإنما دفعه أخوه إلى الطبيب دفعًا، فأخذ ذراعه وخط فيها خطوطا، وقال: «خمسة عشر»، وانتهى الأمر عند هذا الحد. وأصبح الصبى طالبا منتسبا إلى الأزهر، ولم يكن قد بلغ السن التى ذكرها الطبيب والتى لم يكن بد منها لصحة الانتساب، وإنما كان فى الثالثة عشرة من عمره، وقد حُلَّ السوار عن معصمه وعاد إلى غرفته وفى نفسه شك مؤلم لذيذ فى أمانة الممتحنين وفى صدق الطبيب.

المناقشة

١. ماذا كان شعور الصبى حينما أنبئ بأنه سيمتحن فى القرآن توطئة لانتسابه إلى الأزهر ؟

٢. كيف كان وقع دعوة الممتحن للصبى بقوله: «يا أعمى» على نفسه ؟

٣. ما الذى عكر ابتهاج الصبى بهذا السوار الجديد حول معصمه ؟

٤. كان للجنة امتحان القرآن والامتحان الطبى أثرهما البالغ فى نفس الصبى. وضِّح ذلك.

.....

٧ـ قسوة الوحدة

وكانت هذه الحياة شاقة على الصبى وعلى أخيه معا. فأما الصبى فقد كان يستقل[1] ما كان يقدَّم إليه من العلم ويتشوق إلى أن يشهد أكثر مما كان يشهد من الدروس، ويبدأ أكثر مما كان قد بدأ من الفنون. وكانت وحدته فى الغرفة بعد درس النحو قد ثقلت عليه حتى لم يكن يستطيع لها احتمالا، وكان يود لو استطاع الحركة أكثر مما كان يتحرك والكلام أكثر مما كان يتكلم. وأما أخوه فقد ثقل عليه اضطراره إلى أن يقود الصبى إلى الأزهر وإلى البيت مصبحا وممسيا. وثقل عليه أيضا أن يترك الصبى وحده أكثر الوقت، ولم يكن يستطيع أن يفعل غير هذا؛ فلم يكن من الممكن ولا من الملائم لحياته ودرسه أن يهجر أصدقاءه ويتخلف عن دروسه ويقيم فى تلك الغرفة ملازمًا للصبى مؤنسًا له.

ولم يتحدث الصبى بذات نفسه إلى أحد، ولم يتحدث أخو الصبى إليه بذات نفسه أيضا. وأكبر الظن أنه تحدث بذلك إلى أصدقائه غير مرة. ولكن المشكلة بلغت أقصاها ذات ليلة وانتهت إلى الحل بعد ذلك دون أن يقول الصبى لأخيه شيئا أو أن يقول له أخوه شيئا.

دعيت الجماعة ذات يوم إلى أن تسمر عند صديق لها سورى لا يسكن الربع ولا يسكن الحى. وقبلت الجماعة دعوة الصديق، ومضى اليوم كما تعودت الأيام أن تمضى. وذهبت الجماعة إلى درس الأستاذ الإمام ثم عادت منه بعد صلاة العشاء، ليتخفف كل واحد منها مما كان يحمل من محفظته وأوراقه.

وهيأ الشيخ الفتى أخاه الصبى لنومه كما كان يفعل كل ليلة وانصرف عنه بعد أن أطفأ المصباح كما كان ينصرف كل ليلة ولكنه لم يكد يبلغ الباب حتى كان الحزن قد غلب الصبى على نفسه فأجهش ببكاء

---

(١) يراه هيلا.

كظمه ما استطاع. ولكنه وصل فى أكبر الظن إلى أذن الفتى، فلم يغير رأيه ولم يصرفه عن سمره، وإنما أغلق الباب ومضى فى وجهه. وأرضى الصبى حاجة نفسه إلى البكاء ثم عاد إليه اطمئنانه شيئا فشيئا، ومثل قصته التى كان يمثلها فى كل ليلة، فلم يستسلم إلى النوم إلا بعد أن عاد أخوه. ولكنه أصبح فإذا أخوه يقدم إليه بعد درس الفقه وبعد أن أفطر ألوانا من الحلوى كان قد اشتراها له فى طريقه إلى العودة من سمره. وقد فهم الصبى عن أخيه وفهم أخوه عنه، فلم يقل أحدهما لصاحبه شيئا.

ومضى يوم ويوم آخر، وأخذ الشيخ الفتى كتابا من الحاج فيروز ففضه[1] ونظر فيه ثم قال لأخيه وقد وضع يده على كتفه، وامتلأ صوته حنانًا ورفقًا: «لن تكون وحدك فى الغرفة منذ غد، فسيحضر ابن خالتك طالبًا للعلم، وستجد منه مؤنسا ورفيقا».

المناقشة

١. كيف كانت حياة الصبى و أخيه الشيخ شاقة عليهما معا ؟

٢. «و لكن المشكلة بلغت أقصاها ذات ليلة و انتهت إلى الحل بعد ذلك، دون أن يقول الصبى لأخيه شيئا أو أن يقول له أخوه شيئا».

أ) ما المشكلة التي يقصدها الكاتب هنا ؟

ب) و ما الحل الذى انتهت إليه ؟

جـ) و كيف عبر الصبى عن تأثره بهذه المشكلة ؟

.....

(١) فتحه.

٨-فرحة الصبى

وكان ابن خالته هذا رفيق صباه، وكان له صديقا وعنده أثيرًا، وكان كثيرًا ما يهبط من بلدته فى أعلى الإقليم لزيارة الصبى، فينفق معه الشهر أو الأشهر، يختلفان معًا إلى الكتّاب فيلعبان وإلى المسجد فيصليان، ثم يعودان مع الأصيل إلى البيت فيقرآن فى كتب القصص والسمر، أو يمضيان فى ألوان من العبث، أو يخرجان للنزهة عند شجيرات التوت التى تقوم على حافة الإبراهيمية. وكانا كثيرا ما أدارا بينهما ألوانا من الأمانى والأحلام. وكانا قد تعاهدا على أن يذهبا معا إلى القاهرة ويطلبا العلم معا فى الأزهر.

وكثيرًا ما هبط ابن خالته من مدينته فى أعلى الإقليم فى آخر الصيف وقد أعطته أمه نقودا وأعدت له زادًا وودعته على أنه سيذهب مع ابن خالته إلى القاهرة ليطلبا فيها العلم معا. ولكنه كان يشارك صديقه فى الانتظار ثم فى الغضب ثم فى الحزن والبكاء؛ لأن الأسرة رأت أو لأن الشيخ الفتى رأى أن الوقت لم يئن لذهابهما إلى القاهرة. ثم كانا يفترقان ويعود الصديق إلى أمه محزونًا كئيبًا.

فلا غرابة فى أن يقع هذا الخبر من نفس الصبى موقعا حسنا. ولاغرابة فى أن يقضى الصبى مساءه راضيا مبتهجا لا يفكر إلا فى غد. وقد أقبل الليل وملأ الغرفة بظلمته، ولكن الصبى لم يسمع للظلمة فى تلك الليلة صوتًا ولا حديثًا. و أكبر الظن أن حشرات الغرفة قد لعبت كما كانت تفعل فى كل ليلة، ولكن الصبى لم يسمع لها صوتا ولم يحس لها حركة.

وقد أرق الصبى ليلته كلها، ولكنه كان أرقا فرحا مبتهجا، فيه كثير من تعجل الوقت واستبطاء الصبح. وقد ذهب الصبى إلى درس الحديث فسمع صوت الشيخ وهو يتغنى بالسند والمتن، ولكنه لم يلق إلى الشيخ بالاً، ولم يفهم عنه شيئا. وذهب بعد ذلك إلى درس الفقه فاستمع له لأنه لم يجد عن ذلك بدا فقد كان أخوه أوصى به الشيخ، وكان الشيخ يحاوره ويناظره ويضطره إلى أن يسمع له ويفهم عنه. ثم عاد الصبى إلى الغرفة فى الضحى فأنفق وقته هادئا قلقا.

هادئا فى ظاهر الأمر؛ فقد كان يكره كل الكره أن يظهر أخوه أو أصحابه على أن شيئا من أمره قد تغير قليلا أو كثيرا. وقلقا فى دخيلة نفسه يتعجل الوقت ويستبطئ العصر الذى سيصل فيه القطار إلى محطة القاهرة.

وقد دعا المؤذن بصلاة العصر آخر الأمر، ولم يبق بين الصبى وابن خالته إلا هذا الوقت القصير الذى تقطع فيه عربة من عربات النقل هذه المسافة بين المحطة وبين الحى. سالكة باب البحر فباب الشعرية منتهية إلى هذا الباب الذى ستنعطف نحوه: فتمر بين دخان القهوة وقرقرة الشيشة.

وهاتان قدمان تضربان أرض الربع لا يتردد الصبى فى معرفتهما، وهذا ابن خالته يقبل فيلقى عليه سلاما ضاحكا، ثم يعتنقان ضاحكين، وهذا سائق العربة يتبعه وقد حمل ما أرسلته الأسرة إلى الطالبين من الطُرف والزاد. ومن المحقق أن العشاء سيكون دسمًا هذه الليلة. وأنَّ الأصدقاء جميعا سيشاركون فيه، وأن الصبيين لن يخلوا لأنفسهما وأحاديثهما إلا حين يذهب القوم ليشهدوا درس الأستاذ الإمام.

ولكن من المحقق أيضا أن حياة الصبى قد تغيرت كلها منذ ذلك اليوم، فذهبت عنه العزلة حتى رغب فيها أحيانا، وكثر عليه العلم حتى ضاق به أحيانا أخرى.

المناقشة

١. لماذا وقع خبر حضور ابن الخالة من نفس الصبى موقعا حسنا ؟
٢. «لقد أرق الصبى ليلته كلها، و لكنه كان أرقا، فرحا، مبتهجا». بين أسباب أرق الصبى، و لماذا اختلف أرق هذه الليلة عن أرق الليالى السابقة ؟
٣. كيف تغيرت حياة الصبى كلها منذ قدوم ابن خالته إلى القاهرة ؟
٤. «و قد أقبل الليل و ملأ الغرفة بظلمته، و لكن الصبى لم يسمع للظلمة فى تلك الليلة صوتا و لا حديثا».ماذا يقصد بصوت الظلمة ؟ و ما الجمال فى قوله: «لم يسمع للظلمة فى تلك الليلة صوتا» ؟

٩ـ تغير حياة الصبى

وأيسر ما تغير من حياته المادية أنه هجر مجلسه من الغرفة على البساط القديم الذى بسط على الحصير البالى العتيق، فلم يعرفه إلا حين كان يجلس للإفطار أو العشاء، وحين كان يأوى إلى مضجعه حين يتقدم الليل؛ وإنما كان يقضى يومه كله أو أكثره فى الأزهر، وفيما حوله من المساجد التى كان يختلف فيها إلى بعض الدروس. فإذا عاد إلى «الربع » لم يدخل الغرفة إلا ليتخفف من عباءته، ثم يعود فيخرج منها ليجلس مع صاحبه على فراش ضيق من اللبد قد فرش أمامها وأخذ أكثر الطريق على المارة فلم يخل لهم منه إلا موضع أقدام الرجل الواحد أو الرجلين.

وفى هذا المجلس كان الصبيان يلهوان بالحديث قليلا وبالقراءة كثيرا. وقد يفرغان لما كان يجرى فى الطبقة السفلى من حركة وحديث، يسمع أحدهما، ويرى الآخر ويفسر لصاحبه ما لا يرى.

وكذلك عرف الصبى الربع أكثر مما كان يعرفه، وعرف من شئون أهله أكثر مما كان يعرف، وسمع من أحاديثهم أكثر مما كان يسمع، عاش جهرة بعد أن كان يعيش سرا. ولكن حياته الخصبة الممتعة منذ أقبل عليه صديقه لم تكن فى الغرفة ولا فى الربع، وإنما كانت فى الأزهر نفسه. فقد استراح الصبى من درس الفجر وتلبث فى غرفته حتى يدنو درس الفقه.

فإذا حان وقت الدرس خرج مع صاحبه إلى الأزهر، فسلكا الطريق نفسها التى كان يسلكها مع أخيه، ولكنهما يسلكان هذه الطريق متحدثين بالجد مرة وبالهزل مرة أخرى. وقد ينحرفان عن حارة الوطاويط تلك الحارة القذرة، إلى شارع خان جعفر ذلك النظيف، ويخلصان على كل حال إلى شارع سيدنا الحسين والغريب أن الصبى تعود منذ أقبل صديقه عليه ألايمر بمسجد سيدنا الحسين ولا يدخله إلا قرأ الفاتحة. عوده صديقه هذه العادة فدأب عليها. وقد تقدمت به السن واختلفت عليه أطوار الحياة وما يذكر أنه مر بمسجد سيدنا الحسين إلا قرأ فى نفسه هذه السورة الكريمة من سور القرآن.

وكان أخو الصبى قد خصص له ولصاحبه مقدارا يسيرا جدا من النقد ثمنا لإفطارهما، على أن يأخذا بعد درس الفقه جراية الشيخ الفتى

من رواق الحنفية، وكانت أربعة أرغفة، فيأكلان منها رغيفين إذا أفطرا ويحفظان منها رغيفين للعشاء. ومع أن هذا المقدار الذى خصص لهما من النقد قد كان يسيرا ضئيلا لا يتجاوز القرش الواحد فى كل يوم، فقد عرفا كيف يحتالان وكيف يقتصدان ليمتعا أنفسهما ببعض ما كانت نفوسهما تتوق إليه من طرائف الطعام والشراب. وما يمنعهما أن يغدوا ذات صباح مع الطير، فإذا تجاوزا ذلك الباب المقفل من فجوته الضيقة ـ واستدارا ليأخذا طريقهما نحو الأزهر، وقفا عند بائع البليلة فأخذ كل منهما قدرا من هذا الطعام الذى كانا يحبانه أشد الحب، لكثرة ما أكلا منه فى الريف، ولكثرة ما كان يوضع عليه من السكر الذى يختلط بحباته الغلاظ ويذوب فى مائه الشديد الحرارة جدًا، فلا يكادان يسيغانه حتى يطرد عنهما بقية النوم فى جسميهما النشاط ويثير فى أفواههما وأجوفهما لذة كانا يقدرانها قدرها، ويهيئهما تهيئة صالحة لدرس الفقه، يسمعان لحديث الشيخ وقد عمرت بطونهما ورءوسهما معا.

وما يمنعهما إذا كانا ففى شارع سيدنا الحسين أن يعطفا على هذا البائع أو ذاك فيجلسا على مجلس ضيق من الخشب قد ألقى عليه حصير ضيق أحيانا، ولم يلق عليه شيء أحيانا أخرى، ولكنه كان وثيرا على كل حال؛ لأن الجلوس عليه كان يصحبه انتظار لذة كانا يحبانها ويقدرانها، لذة هذا التين المرطب الذى يقدم إليهما فى إناء صغير، فيلتهمانه التهاما ثم يعّبان فى مائة عبًا، ثم يأكلان ما كان تحته من زبيب فى أناة وهدوء! وما يمنعهما حين يعودان قُبَيل العصر أو بعيده أن يجورا على ثمن العشاء فيقفا عند بائع الهريسة أو بائع البسبوسة ويرضيا لذاتهما البريئة إلى هذا اللون من الحلوى أو ذاك! وليس على إفطارهما ولا على عشائهما بأس.

فأما الإفطار فقد كان أمره يسيرا جدا: زيارة لبائع من هؤلاء الباعة الذين كانوا يعرضون الفول النابت، ومعهما رغيفاهما وهما يدفعان إلى هذا

البائع مليمين ونصف مليم، وقد اشتريا بنصف مليم حزمة أو حزمتين من كراث، وهذا البائع يقبل عليهما بإناء ضخم عميق قد امتلأ مرقا وسبحت فيه حبات من الفول وألقى عليه قليل من الزيت، فهما يغمسان خبزهما فى المرق، ويتصيدان ما تيسر من حب، ويلتهمان ما تحمله يدهما اليسرى إلى أفواههما من الكراث... وما يبلغان آخر الرغيف وآخر الكراث حتى يبلغا حظهما من الطعام وقد امتلآ حتى كادا يكتظان. ولكن فى الإناء بقية من مرق، فكان الصبى يستحيى أن يجيب صاحبه إلى ما يعرض عليه من شرب هذا المرق. وكان صاحبه يضحك منه ويرفع الإناء فيعب فيه حتى يرده إلى البائع نظيفا.

فقد أفطرا إذا ولم ينفقا أكثر من ثلاثة مليمات، وقد غنما ما طعما قبل الدرس. وما عليهما الآن إلا أن يعودا إلى الأزهر ليرضيا عقولهما بعد أن رضيت أجسامهما. وكان الصبى قد حرص كل الحرص على أن يواظب على درس شيخه المجدد المحافظ فى الفقه والنحو، طاعة لأخيه من جهة وإرضاء لنفسه من جهة أخرى. ولكنه كان شديد الطمع فى أن يسمع لغير هذا الشيخ، وأن يذوق غير هذين اللونين من ألوان العلم. وقد أتيح له ذلك فى غير مشقة ولا جهد بفضل هذه الدروس التى كانت تلقى فى الضحى بعد أن يفرغ الطلاب من إفطارهم. وقد قرر الصديقان أن يحضرا شرح الكفراوى وكان يُلقَى فى الضحى من كل يوم، يلقيه شيخ جديد ولكنه قديم. جديد فى الدرجة، قديم فى الصلة بالأزهر. قد تقدمت به السن وطال عليه الطلب حتى ظفر بدرجته، وبدأ كما كان يبدأ أمثاله بقراءة «شرح الكفراوى».

وكان الصبى يسمع من شيخه الأول ومن أخيه وأصحابه عبثا كثيرا بشرح الكفراوى، وسخطا كثيرا عليه، فكان ذلك يغريه به ويرغبه فيه.

وما هى إلا أن يحضر الدرس الأول ويسمع الأوجه التسعة فى قراءة بسم الله الرحمن الرحيم وإعرابها حتى يفتن بهذا اللون من العلم ويكلف به أشد الكلف، وإذا هو يواظب مع صاحبه فى دقة على هذا الدرس من دروس النحو، ويواظب فى دقة أيضا على درسه القديم. وكان يرى أنه

يتعلم النحو فى درسه القديم، وأنه يلهو بالنحو فى درسه الجديد. وكان يلهو فى درسه الجديد حقا، يلهو بهذا الإعراب المتصل الذى ألح فيه الشارح على المتن إلحاحا شديدا. ويلهو خاصة بالشيخ الذى كان يقرأ متنه وشرحه ويفسر ما يقرأ فى صوت غريب مضحك حقا. لم يكن يقرأ وإنما كان يغنى. ولم يكن غناؤه يصعد من صدره، وإنما كان يهبط من رأسه. وكان صوته قد جمع بين خصلتين متناقضتين، فكان أصم مكظوما، وكان ممتدا عريضا.

وكان الشيخ على ذلك من أهل الصعيد أو قل من أقصى الصعيد، وكان قد احتفظ بلهجته الإقليمية لم يغير منها شيئا لا فى الكلام ولا فى القراءة ولا فى الغناء. وكان الشيخ على هذا كله غليظ الطبع، يقرأ فى عنف، ويسأل الطلاب ويرد عليهم فى عنف. وكان سريع الغضب، لا يكاد يُسأل حتى يشتم؛ فإن ألح عليه السائل لم يُعْفِه من لكمة إن كان قريبا منه، ومن رمية بحذائه إن كان مجلسه منه بعيدا. وكان حذاء الشيخ غليظا كصوته جافيا كثيابه؛ فلم يكن يتخذ العباءة، إنما كان يتخذ «الدفية». كان حذاء الشيخ غليظا جافيا، وكانت نعله قد ملئت بالمسامير؛ وكان ذلك أمتن للحذاء وأمنع له من البِلَى، فَفَكَّر فى الطالب الذى كانت تصيبه مسامير هذا الحذاء فى وجهه أو فيما يبدو من جسمه!

ومن أجل هذا أشفق الطلاب من سؤال الشيخ وخلوا بينه وبين القراءة والتفسير والتقرير والغناء. ومن أجل ذلك لم يُصيِّع الشيخ وقته ولا وقت الطلاب. وبدأ سنته الدراسية بشرح الكفراوى، ولم تنته هذه السنة حتى كان قد أتم شرح الشيخ خالد إلاكتابا واحدا، وعلى حين لم يكن ذلك الشيخ المجدد المحافظ قد تجاوز بطلابه القليلين الأبواب الأولى من النحو.

وكان لهذا كله أثره فى حياة الصبى النحوية، إن صح هذا التعبير فقد قضى إجازة الصيف وعاد إلى القاهرة، فلم ير شيخه المحافظ المجدد، إنما سلك طريق غيره من الأزهريين، فحضر فى الفقه شرح الطائى على الكنز، وحضر فى النحو حاشية العطار على شرح الأزهرية. ولكن من الخير ألا نتعجل الحوادث وأن نبقى مع صاحبنا فى سنته الأولى.

كان إذن يفرغ من درس الضحى فينتقل إلى درس الظهر، ثم يعود إلى غرفته فيقرأ مع صاحبه مطالعا دروس غد كما كان يفعل أصحاب الجد من الطلاب، أو متنقلا بين كتب مختلفة يفهم عنها أو لا يفهم فإذا دعيت الشمس إلى غروبها أقبل الصديقان على عشائهما، وكان يختلف رقة وغلظا باختلاف ما بقى لهما من نقد. فإن كان قد بقى لهما نصف القرش قسماه نصفين فاشتريا بنصفه شيئا من الحلوى الطحينية وبنصفه الآخر شيئا من الجبن وقطعة من الحلاوة، ويريان لهذا المزاج الغريب طعما لذيذا. وإن كانت البليلة أو التين قد أسرفا عليهما فى نقدهما فلم يبق لهما منه إلا ربع القرش، اشتريا بما تبقى لهما شيئا من الطحينة ثم صبا عليه شيئا من عسل أسود أو أبيض كان يأتيهما من الريف، ثم أقبلا على عشاء ليس بالفخم. ولكنه لابأس به.

فإن جارت البليلة أو التين أو كلاهما على نقدهما فلم يبقيا منه شيئا، فليس عليهما من بأس، لقد حفظا رغيفيهما، وفى الغرفة هذه الصفيحة أو تلك، فى هذه العسل الأسود، وفى تلك العسل الأبيض، فليأخذا من هذا العسل شيئا وليغمسا فيه رغيفيهما فذلك يجزئ عما كانا يجدان فى الحلاوة والجبن والطحينة من ترف.

وربما أباحا لأنفسهما على هذا البؤس شيئا من ترف فغمسا رغيفهما الأول وقد اقتسماه فى العسل الأسود، ثم غمسا رغيفهما الثانى وقد اقتسماه أيضا فى العسل الأبيض.

وقد جعلت الشمس تسرع إلى غروبها، وكاد المؤذن يصعد إلى مئذنته، فليسرع الصديقان إذا إلى الأزهر، فهما يحضران درسا بعد صلاة المغرب كما يفعل أولئك الطلاب الكبار.هما يحضران درسا فى المنطق، يحضران متن السلّم للأخضرى. ومن الحق أنهما كانا يحضران هذا الدرس على شيخ كان يرى نفسه عالما وإن لم يعترف له الأزهر بالعالمية. طال عليه الوقت، واشتد إلحاحه فى طلب الدرجة فلم يظفر بها، ولكنه لم ييأس

منها ولم يرض بحكم المتحنين فيه، فجعل يطاولهم من جهة، ويغيظهم من جهة أخرى. يطاولهم بحضور الدرس والتقدم للامتحان، ويغيظهم بالجلوس إلى أحد الأعمدة إذا صليت المغرب ومن حوله جماعة من الطلاب وهو يقرأ لهم كتابًا فى المنطق كما يقرأ العلماء الممتازون؛ فلم يكن يهجم على تعليم المنطق إلا هؤلاء العلماء الممتازون.

ومن الحق أن ذلك الطالب الشيخ لم يكن بارعا فى العلم ولا ماهرا فى التعليم، وأن جهله وعجزه كانا يظهران حتى لهؤلاء التلاميذ المبتدئين. ومن الحق أنه كان من أقصى الصعيد، وكان محتفظا بلهجته كما عرفها قبل أن يقبل على الأزهر، ولم يكن يغير منها شيئا فى قراءته وحديثه.

ومن الحق آخر الأمر أنه كان سريع الغضب شديد الحدة، ولكنه لم يكن يشتم التلاميذ ولا يضربهم، أولم يكن يجرؤ على شتم التلاميذ وضربهم؟؛ فما ينبغى ذلك إلا للعالم حقا وصدقا، الذى نال الدرجة، ونال معها الإذن الضمنى بشتم التلاميذ أو ضربهم.

كل هذا كان حقا، وكل هذا سمعه الصديقان من أولئك الطلاب الكبار، ولكنه لم يمنعهما من حضور الدرس والمواظبة عليه، ليقولا لأنفسهما إنهما يدرسان المنطق، وليقولا لأنفسهما إنهما يذهبان إلى الأزهر بعد صلاة المغرب ويعودان منه بعد صلاة العشاء، كما يفعل الطلاب الكبار المتقدمون.

وما أسرع ما انقضت السنة الأولى! وما أسرع ما ختمت دروس الفقه والنحو! وما أسرع ما دعى التلاميذ إلى التفرق ثم إلى الرحيل إلى حيث ينفقون الصيف بين أهلهم فى المدن والقرى! وما أشد ما كان الصبى يتشوق إلى هذه الإجازة ويتحرق حنينا إلى الريف!

ولكن الإجازة قد أقبلت، وإذا هو يريد أن يمتنع عن الرحيل وأن يبقى فى القاهرة. أكان صادقا فى هذا التمنع ؟ أم كان متكلفا له ؟ كان صادقا وكان متكلفًا معا.

كان صادقا لأنه أحب القاهرة وكلف بها وشق عليه فراقها وقد كره الرحيل دائما. وكان متكلفا، فقد كان أخوه يقضى أكثر إجازاته فى القاهرة،

وكانت الأسرة تكبر منه ذلك وتراه آية جد واجتهاد. وكان يريد أن يصنع صنع أخيه، وأن يُظَن به ما كان يُظَن بأخيه، ولكن تَمَنُّعُه لم يغن عنه شيئا. وها هو ذا يركب مع صاحبه عربة من عربات النقل ومعهما ثيابهما قد لفت في حزمتين وقد بلغا المحطة، وأخذت لهما تذكرتان ثم دفعتا إليهما؛ ثم وضعا في عربة مزدحمة من عربات الدرجة الثالثة، ثم تحرك القطار، ولم يكد يمضي قليلا ويبلغ محطة بعد القاهرة أو محطتين حتى نسى الصديقان أزهرهما وقاهرتهما وربعهما، ولم يذكرا إلا شيئا واحدًا هو الريف، وما سيكون فيه من لذة ونعيم.

المناقشة

١. لماذا عرف الصبى الربع أكثر مما كان يعرفه قبل أن يأتى ابن خالته؟

٢. لماذا كان الصبى يحرص على أن يقبل على درس شيخه المجدد فى الفقه و النحو ؟

٣. بم وصف الكاتب الشيخ على شيخ النحو ؟

٤. «و من أجل ذلك أشفق الطلاب من سؤال الشيخ وخلوا بينه وبين القراءة و التفسير والتقرير والغناء ».

أ) لماذا أشفق الطلاب من سؤال الشيخ ؟

ب) «خلوا بينه و بين القراءة و التفسير «اشرح المقصود من هذا التعبير.

ج) ما رأيك فى أسلوب الشيخ فى تعليم طلابه ؟

٥. ما الأسباب الحقيقية التى جعلت الصبى و صاحبه يسرعان إلى درس المنطق بعد المغرب ؟

٦. ما الذى جعل الصبى يفكر فى البقاء بالقاهرة فى إجازة الصيف ؟

....

١٠ـ تمرد الصبى

وكانت العشاء قد صليت حين نزل الصبيان من القطار، فلم يجدا فى المحطة أحدا، فأنكرا ذلك شيئا، ولكنهما وصلا إلى الدار، فإذا كل شيء كان يجرى فيها كما كانت تجرى الأمور فى كل يوم. قد فرغت الأسرة من عشائها منذ وقت طويل، وأتم الشيخ صلاته ثم خرج كعادته فجلس مع أصحابه غير بعيد من الدار، وتناوم الصبية، وجعلت أختهم الصغرى تحملهم واحدا واحدا إلى مضاجعهم. واضطجعت أم الصبى على فراش من اللبد تحت السماء تستريح، والنوم يلم بها ثم يصرف عنها، ومن حولها بناتها قد جلسن يتحدثن كعادتهن فى كل ليلة، حتى يقضى الشيخ سمره القصير ثم يعود إلى الدار، فتأوى الأسرة كلها إلى مضاجعها. ويشمل الدار سكون وهدوء لا يقطعهما إلا تنابح الكلاب وتصايح الديكة فى داخل الدار وفى أطراف القرية.

فلما دخل الصبيان وجمت الأسرة لدخولهما ولم تكن قد أُنبئت بعودتهما، فلم تعد لهما عشاء خاصا، ولم تنتظرهما بالعشاء المألوف، ولم ترسل أحدا لتلقيهما عند نزولهما من القطار.

وكذلك أُضيع على الصبى ما كان يدير فى نفسه من الأمانى، وما كان يقدر من أنه سيستقبل كما كان يستقبل أخوه الشيخ فى ابتهاج وحفاوة واستعداد عظيم. على أن أمه نهضت فقبلته، ونهضت إليه أخواته فضممنه إليهن، وقدم إليه وإلى صاحبه عشاء كعشائهما فى القاهرة. وأقبل الشيخ فأعطى ابنه يده ليقبلها ثم سأله عن أخيه فى القاهرة. وأوت الأسرة كلها إلى مضاجعها، ونام الصبى فى مضجعه القديم، وهو يكتم فى صدره كثيرا من الغيظ وكثيرا من خيبة الأمل أيضا.

ومضت الحياة بعد ذلك فى الدار والقرية كما كانت تمضى قبل أن يذهب الصبى إلى القاهرة ويطلب العلم فى الأزهر، كأنه لم يذهب إلى القاهرة ولم يجلس إلى العلماء ولم يدرس الفقه والنحو والمنطق والحديث،

وإذا هو مضطر كما كان يضطر من قبل. إلى أن يلقى «سيدنا » بالتحية والإكرام، ويقبل يده كما كان يفعل من قبل ويسمع منه كلامه الفارغ الكثير كما كان يسمعه من قبل. وإذا هو مضطر إلى أن يذهب بين وقت وآخر إلى الكتاب لينفق الوقت، وإذا التلاميذ يلقونه كما كانوا يلقونه قديما، لا يكادون يشعرون بأنه غاب عنهم، ولا يكادون يسألونه عما رأى أو سمع فى القاهرة، ولو قد سألوه لخبرهم بالكثير.

وأكثر من هذا كله أنه لم يقبل أحد من أهل القرية على الدار ليسلم على الصبى الشيخ بعد أن عاد إليها وقد غاب عنها سنة دراسية كاملة، إنما كان يلقاه منهم هذا الرجل أو ذاك، فيلقى عليه فى فتور وإعراض هذا السؤال: ها أنت ذا ؟ أعدت من القاهرة ؟ كيف أنت ؟ ثم يلقى عليه هذا السؤال الآخر معنيا به رافعا به صوته: وكيف تركت أخاك الشيخ ؟

وقد استقر إذن فى نفس الصبى أنه ما زال،كما كان قبل رحلته إلى القاهرة، قليل الخطر ضئيل الشأن لا يستحق عناية به ولا سؤالا عنه. فآذى ذلك غروره، وقد كان غروره شديدا، وزاده ذلك إمعانا فى الصمت وعكوفا على نفسه وانصرافا إليها. ولكنه لم يكد يقضى أياما بين أسرته وأهل قريته حتى غير رأى الناس فيه ولفتهم إليه، لا لفت عطف ومودة، ولكن لفت إنكار وإعراض وازورار. فقد احتمل من أهل القرية ما كان يحتمل قديما يوما ويوما وأياما. ولكنه لم يطق على ذلك صبرا، وإذا هو ينبو على ما كان يألف، وينكر ما كان يعرف، ويتمرد على من كان يظهر لهم الإذعان والخضوع. كان صادقا فى ذلك أول الأمر، فلما أحس الإنكار والازورار والمقاومة، تكلف وعاند وغلا فى الشذوذ.

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لاستقامت الأمور، ولكن صاحبنا سمع أباه يقرأ «دلائل الخيرات» كما كان يفعل دائما إذا فرغ من صلاة الصبح أو من صلاة العصر، فرفع كتفيه وهز رأسه ثم ضحك، ثم قال لإخوته: إن قراءة الدلائل عبث لا غناء فيه.

فأما الصغار من إخوته وأخواته فلم يفهموا عنه ولم يلتفتوا إليه، ولكن أخته الكبرى زجرته زجرا عنيفا ورفعت بهذا الزجر صوتها، فسمعها الشيخ ولم يقطع قراءته، ولكنه مضى فيها حتى أتمها، ثم أقبل على الصبى هادئا باسما يسأله ماذا كان يقول ؟ فأعاد الصبى قوله. فلما سمعه الشيخ هز رأسه وضحك ضحكة قصيرة وقال لابنه فى ازدراء: «ما أنت وذاك! هذا ما تعلمته فى الأزهر! «فغضب الصبى وقال لأبيه: «نعم، وتعلمت فى الأزهر أن كثيرا مما تقرؤه فى هذا الكتاب حرام يضر ولا ينفع؛ فما ينبغى أن يتوسل إنسان بالأنبياء ولا بالأولياء، وما ينبغى أن يكون بين الله وبين الناس واسطة، وإنما هذا لون من الوثنية ».

هنالك غضب الشيخ غضبا شديدا، ولكنه كظم غضبه واحتفظ بابتسامته وقال فأضحك الأسرة كلها: «اخرس قطع الله لسانك، لا تعد إلى هذا الكلام. وإنى أقسم لئن فعلت لأمسكنك فى القرية، ولأقطعنك عن الأزهر، ولأجعلنك فقيها تقرأ القرآن فى المآتم والبيوت ». ثم انصرف، وتضاحكت الأسرة من حول الصبى، ولكن هذه القصة على قسوتها الساخرة لم تزد صاحبنا إلا عنادا وإصرارا.

وقد نسيها الشيخ بعد ساعات، وأقبل على عشائه ومن حوله أبناؤه وبناته كعادته،وجعل يسأل الصبى عن الشيخ الفتى ماذا يصنع فى القاهرة ؟ وماذا يقرأ من الكتب ؟ وعلى من يختلف من الأساتذة ؟

كان الشيخ يجد لذة عظيمة فى إلقاء هذه الأسئلة وفى الاستماع لأجوبتها. كان يلقيها على ابنه الشيخ الفتى إذا عاد إلى القرية، فيجيبه متكلفا أول مرة، فإذا أعيدت أعرض الفتى عن أبيه وبخل عليه بالجواب. ولم يكن أبوه ينكر ذلك منه جهرة، ولكنه كان يتأذى به ويشكو منه لزوجته إذا خلا إليها.

فأما الصبى فكان سمحا طيعا، لا يعرض عن أبيه ولا يمتنع عن إجابته، ولا يدركه السأم[1] مهما تتكرر الأسئلة ومهما يكن موضوعها وكان

---

(١) الملل.

الشيخ من أجل ذلك يحب أن يسأله ويستمتع بالتحدث إليه فى أثناء العشاء وأثناء الغداء. ولعله كان يعيد على أصحابه بعض ما كان ابنه يقص عليه من زيارات الشيخ الفتى للأستاذ الإمام والشيخ بخيت، ومن اعتراض الشيخ الفتى على أساتذته فى أثناء الدرس وإحراجه لهم، وردهم عليه بالعنف وبالشتم وبالضرب أحيانا.

وكان الصبى يشعر بلذة أبيه لهذه الأحاديث ورضاه عنها، فيتزيد ويتكثر ويخترع منها ما لم يكن، ويحفظ ذلك فى نفسه ليقصه على أخيه إذا عاد إلى القاهرة.

وكان الشيخ بهذا كله سعيدا وله مغتبطا وعلى تجديده حريصا فلما جلست الأسرة للعشاء فى تلك الليلة وجدد الشيخ أسئلته عن ابنه الفتى: ماذا يصنع فى القاهرة ؟ وماذا يقرأ من الكتب ؟ قال الصبى فى دهاء وخبث وكيد: إنه يزور قبور الأولياء، وينفق نهاره فى قراءة دلائل الخيرات.

ولم يكد الصبى ينطق بهذا الجواب حتى أغرقت الأسرة كلها فى ضحك شديد شرق له الصغار بما كان فى أفواههم من طعام وشراب، وكان الشيخ نفسه أسرعهم إلى الضحك وأشدهم إغراقا فيه

وكذلك استحال نقد الصبى لأبيه فى قراءته للدلائل والأوراد موضوعا للهو الأسرة وعبثها أعواما وأعواما. والظريف من هذا الأمر أن هذا النقد كان يُحفظ الشيخ حقا، ويؤذيه فى نفسه وفيما ورث من عادة واعتقاد.ولكن الشيخ على ذلك كان يدعو ابنه إلى هذا النقد ويغريه به، ويجد فى هذا الألم لذة ومتاعا.

ومهما يكن من شيء فإن شذوذ الصبى لم يلبث أن تجاوز الدار إلى مجلس الشيخ قريبا منها، وإلى دكان الشيخ محمد عبد الواحد، وإلى المسجد حيث كان الشيخ محمد أبو أحمد رئيس الفقهاء فى المدينة يقرئ

القرآن للصبية والشباب، ويصلى بالناس فى أثناء الأسبوع ويفقههم فى دينهم أحيانا، وحيث كان الشيخ عطية — رجل من التجار الذين طلبوا العلم فى الأزهر أعواما، ثم عادوا إلى الريف فاشتغلوا بأمور الدنيا ولم ينصرفوا عن أمور الدين — يجلس للناس بعد صلاة العصر من حين إلى حين، فيعظهم ويفقههم، وربما قرأ لهم شيئا من الحديث.

بل وصل شذوذ الصبى إلى المحكمة الشرعية، فسمعه القاضى وسمعه خاصة ذلك الشيخ الذى كان يكتب للقاضى، ويرى أنه أعلم من القاضى بالشرع، وأفقه منه بالدين، وأحق منه بالقضاء، لولا أنه لم يظفر بهذه الورقة التى تسمى درجة العالمية والتى تُشْتَرَط لتولى منصب القضاء، والتى تنال بالجد والاجتهاد قليلا وبالحظ والتملق فى أكثر الأحيان.

تسامع هؤلاء الناس جميعا بمقالات هذا الصبى وإنكاره لكثير مما يعرفون، واستهزائه بكرامات الأولياء، وتحريمه التوسل[1] بهم وبالأنبياء. وقال بعضهم لبعض: إن هذا الصبى ضال مضل، قد ذهب إلى القاهرة فسمع مقالات الشيخ محمد عبده الضارة وآراءه الفاسدة المفسدة، ثم عاد بها إلى المدينة ليضل الناس.

وربما سعى بعضهم إلى مجلس الشيخ وأصحابه قريبا من الدار وطلبوا إلى الشيخ أن يريهم ابنه ذلك الشاذ الغريب. فيقبل الشيخ هادئا باسما حتى يدخل الدار، فيرى ابنه آخذا فى اللعب أو الحديث مع أخواته، فيأخذه بيده فى رفق ويقوده إلى مجلسه؛ فإذا سلم على القادمين أجلسه، ثم أخذ بعض القادمين فى التحدث إليه رفيقا أول الأمر، فإذا اتصل الحديث ذهب الرفق وقام مقامه الحوار العنيف. وكثيرا ما كان محاور الصبى ينصرف غاضبا متحرجا يستغفر الله من الذنب العظيم، ويستعيذ به من الشيطان الرجيم.

---

(١) اتخاذ وسيلة

وكان الشيخ وأصحابه من الذين لم يدرسوا فى الأزهر ولم يتفقهوا فى الدين يرضون عن هذه الخصومات ويعجبون بها، ويبتهجون لهذا الصراع الذى كانوا يشهدونه بين هذا الصبى الناشئ وهؤلاء الشيوخ الشيب.

وكان أبو الصبى أشدهم غبطة وسرورا. ومع أنه لم يصدق قط أن التوسل بالأولياء والأنبياء حرام، ولم يطمئن قط إلى عجز الأولياء عن إحداث الكرامات، ولم يساير قط ابنه فيما كان يقول من تلك المقالات، فقد كان يحب أن يرى ابنه محاورا مخاصما ظاهرا على محاوريه ومخاصميه، وكان يتعصب لابنه تعصبا شديدا. وكان يسمع ويحفظ ما كان الناس يتحدثون به ويخترعونه أحيانا من أمر هذا الصبى الغريب، ثم يعود مع الظهر أو مع المساء فيعيد ذلك كله على زوجته راضيا حينا وساخطا حينا آخر.

وعلى كل حال فقد انتقم الصبى لنفسه، وخرج من عزلته وشغل الناس فى القرية والمدينة بالحديث عنه والتفكير فيه، وتغير مكانه فى الأسرة، مكانه المعنوى إن صح هذا التعبير، فلم يهمله أبوه، ولم تعرض عنه أمه وإخوته، ولم تقم الصلة بينهم وبينه على الرحمة والإشفاق، بل على شيء أكثر وآثر عند الصبى من الرحمة والإشفاق.

وانقطع ذلك التذير الذى سمعه الصبى فى أول الإجازة بأنه قد يبقى فى القرية ويقطع عن الأزهر فقيها يقرأ القرآن فى المآتم والبيوت. وآية ذلك أنه أصبح ذات يوم فنهض مع الفجر ونهضت الأسرة كلها مع الفجر أيضا، ورأى الصبى نفسه بين ذراعى أمه وهى تقبله وتذرف دموعا صامتة. ثم رأى الصبى نفسه فى المحطة مع صاحبه وأبوه يجلسه فى القطار رفيقا به، ثم يعطيه يده ليقبلها، ثم ينصرف عنه وهو يسأل الله أن يفتح عليه.

ورأى الصبى نفسه يعبث مع صاحبه أثناء السفر، ثم رأى الصبى نفسه ينزل من القطار فى محطة القاهرة، وإذا أخوه يتلقاه مبتسما له، ثم

يدعو حمالا ليحمل ما كان معه من متاع قليل وزاد كثير. فإذا تجاوز باب المحطة دعا عربة من عربات النقل فحمل عليها الزاد وصاحب أخيه، ثم عربة أخرى من عربات الركوب، فأجلس فيها أخاه رفيقا به، وجلس عن يمينه وأعطى السائق عنوان «الربع »

المناقشة

١. كيف استُقْبِلَ الصبى الشيخ حينما وصل إلى قريته لقضاء الإجازة ؟ و ما أثر ذلك الاستقبال فى نفسه ؟

٢. كيف لفت الصبى أسرته و أهل قريته إليه و غير رأيهم فيه ؟

٣. لماذا أنكر الصبى على أبيه قراءة دلائل الخيرات وزيارة قبور الأولياء ؟

٤. «إن هذا الصبى ضال مضل، قد ذهب إلى القاهرة فسمع مقالات الشيخ محمد عبده الضارة وآراءه الفاسدة المفسدة ». ما أسباب وصف أهل القرية للصبى بالضال المضل ؟

٥. ماذا كان موقف أهل القرية من الشيخ محمد عبده ؟ و لماذا ؟

٦. لماذا يصفون آراء الشيخ محمد عبده بالفاسدة المفسدة ؟ وما رأيك؟

.....

١١ـ إقبال الصبى على الأدب

لم يكد الصبى يبلغ القاهرة ويستقر فيها حتى سمع ذكر الأدب والأدباء، كما سمع العلم والعلماء. سمع حديث الأدب بين هؤلاء الطلاب الكبار حين كانوا يذكرون الشيخ الشنقيطى ـ رحمه الله ـ وحماية الأستاذ الإمام له وبره به. وقد وقع هذا الاسم الأجنبى من نفس الصبى موقعا غريبا. وزاد موقعه غرابة ما كان الصبى يسمعه من أعاجيب الشيخ وأطواره[1] الشاذة وآرائه التى كانت تضحك قوما وتغضب قوما آخرين.

كان أولئك الطلاب الكبار يتحدثون بأنهم لم يروا قط ضريبًا[2] للشيخ الشنقيطى فى حفظ اللغة ورواية الحديث سندا ومتنا عن ظهر قلب. وكانوا يتحدثون بحدته وشدته وسرعته إلى الغضب وانطلاق لسانه بما لا يطاق من القول. وكانوا يضربونه مثلا لحدة المغاربة، وكانوا يذكرون إقامته فى المدينة ورحلته إلى قسطنطينية، وزيارته للأندلس، وربما تناشدوا شعره فى بعض ذلك، وكانوا يذكرون أن له مكتبة غنية بالمخطوط والمطبوع فى مصر وفى أوربا، وأنه لا يقنع بهذه المكتبة وإنما ينفق أكثر وقته فى دار الكتب قارئا أو ناسخا. ثم كانوا يذكرون بعد ذلك متضاحكين قصته الكبرى تلك التى شغلته بالناس وشغلت الناس به، وعرضته لكثير من الشر والألم، وهى رأيه فى أن «عمر» مصروف لا ممنوع من الصرف.

وكان الصبى يسمع حديث «عمر» هذا فلا يفهم منه شيئا أول الأمر، ولكنه لم يلبث أن فهمه فى وضوح حين تقدم فى درس النحو وعرف الصرف والممنوع من الصرف. وكان أولئك الشباب يذكرون مناظرات الشيخ مع جماعات من علماء الأزهر فى صرف «عمر» هذا أو منعه من الصرف، ويتحدثون ضاحكين بأن العلماء اجتمعوا للشيخ ذات يوم فى

---

(١) أحواله.

(٢) مثيلا وشبيها.

الأزهر برأسهم شيخ الجامع، فطلبوا إليه أن يعرض عليهم رأيه فى صرف عمر. فقال الشيخ فى لهجته المغربية المتحضرة: لا أعرض عليكم هذا الرأى حتى تجلسوا منى مجلس التلاميذ من الأستاذ فتردد الشيوخ، ولكن واحدا منهم ماكرًا ماهرا نهض عن مجلسه وسعى حتى كان بين يدى الشيخ فجلس على الأرض متربعا؛ وأخذ الشيخ فى عرض رأيه فقال: أنشد الخليل:

يا أيها الزارى على عُمَر قد قلت فيه غير ما تعلم

قال الشيخ الجالس مجلس التلميذ بصوته الماكر النحيف: لقد رأيت الخليل أمس فأنشدنى البيت على هذا النحو «يا أيها الزارى على عُمَرَ». ولم يدعه الشيخ الشنقيطى يتم إنشاده، وإنما قطع عليه الإنشاد محتدًا وهو يقول: كذبت! كذبت! لقد مات الخليل منذ قرون طويلة فكيف يمكن لقاء الموتى ؟! وجعل بعد ذلك يُشْهِدُ الشيوخ على تعمد صاحبهم للكذب، وعلى جهله بالنحو والعروض. وضحك القوم وتفرق المجلس دون أن يقضى فى أمر «عمر» أممنوع من الصرف كما يقول النحاة أم مصروف كما يقول هذا الشيخ الغريب. وكان الصبى يسمع هذا الكلام فيحفظه، ويجد اللذة فيما فهم منه، ويعجب بما لم يفهم.

وكان الشيخ يقرأ لبعض الطلاب هذه القصائد التى تعرف بالمعلقات. وكان أخو الصبى وبعض أصدقائه يسمعون هذا الدرس فى يوم الخميس أو فى يوم الجمعة من كل أسبوع، وكانوا يعدون هذا الدرس كغيره من الدروس. وكذلك سمع الصبى لأول مرة:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزِلِ بسِقْطِ اللِوَى بين الدَخول فحوْمَل

وما أسرع ما انصرف هؤلاء الطلاب الكبار عن هذا الدرس الذى لم يسيغوه! ولكن أخا الصبى حاول أن يحفظ المعلقات، فحفظ منها معلقة امرىء القيس ومعلقة طرفة. كان يردد الأبيات بصوت مرتفع والصبى يسمع

فيحفظ، ثم لم يلبث أن أشرك الصبى معه فى الحفظ. ولكنه لم يتجاوز هاتين المعلقتين وانصرف إلى دروسه الأزهرية الأخرى. واستقرت المعلقتان فى نفس الصبى يحفظهما ولا يفهم منهما إلا قليلا.

وكان هؤلاء الطلاب يتحدثون عن درس آخر كان يلقى فى الأزهر لِيُعَلِّم الأزهريين صناعة الإنشاء. وكان يلقيه شيخ سورى من خاصة الأستاذ الإمام، وقد اختلف إليه هؤلاء الطلاب فاشتروا الدفاتر وكتبوا موضوعات الإنشاء، ولكنهم عدلوا عنه بعد قليل كما عدلوا عن درس الشنقيطى. وأقبل أخو الصبى ذات يوم ومعه مقامات الحريرى، فجعل يحفظ بعضها رافعًا صوته بالقراءة والصبى يحفظ صامتًا، ثم أشركه فى الحفظ كما أشركه فى حفظ المعلقات، ومضيا فى ذلك حتى حفظا عشر مقامات. ثم انصرف الشيخ الفتى إلى الأصول والفقه والتوحيد كما انصرف عن المعلقات ودرس الإنشاء.

وأقبل مرة أخرى ومعه كتاب ضخم يسمى نهج البلاغة فيه خطب الإمام علي وقد شرحها الأستاذ الإمام نفسه. فجعل يحفظ من هذه الخطب ويحفظ الصبى معه، ثم أعرض عن هذا الكتاب كما أعرض عن غيره بعد أن حفظ الصبى طائفة من الخطب.

وصنع الشيخ الفتى هذا الصنيع نفسه بمقامات بديع الزمان الهمذانى. ولم ينس الصبى قط قصيدة أبى فراس :

أراك عصـيّ الدمع شيمتك الصبر　　　أمَا للهوى نهيٌ عليك ولا أمر

فقد أقبل بها أخوه وقد طبعت مشطرة أو مخمسة، شطرها أو خمسها بعض الأزهريين، فجعل يقرأ فى هذه القصيدة، ثم لم يلبث أن أعرض عن تشطير الأزهرى أو تخميسه وأخذ فى حفظ القصيدة نفسها مع أخيه.

وإنما ذكر الصبى هذه القصيدة لأنه صادف فى أثنائها بيتًا كان يقع فى أذنه موقعًا غريبًا، وهو قول أبى فراس :

بدوت وأهلى حاضرون لأننى أرى أن داراً لست من أهلها قفر

فقد قرأه الشيخ الفتى وأحفظه أخاه:

..... لأننى أرى أن دار السِتّ من أهلها قفر

وكان الصبى يسأل نفسه عن معنى هذا البيت، كما كان يرى غريبًا أن تأتى كلمة «الست » فى بيت من الشعر. فلما تقدمت به السن وتقدمت به المعرفة أيضًا قرأ البيت على وجهه ففهمه، وعرف كذلك أن كلمة «الست » ربما جاءت فى شعر المحدثين من العباسيين ونثرهم أيضًا.

وكذلك اتصل صاحبنا بالأدب على هذا النحو المضطرب المختلط، وجمع فى نفسه أطرافا من هذا الخليط من الشعر والنثر. ولكنه لم يقف عند شىء من ذلك ولم يفرغ له، وإنما كان يحفظ منه ما يمر به حين تتاح له الفرصة، ثم يمضى لشأنه.

وفى ذات يوم من أول العام الدراسى أقبل أولئك الشباب متحمسين أشد التحمس لدرس جديد يلقى فى الضحى، ويلقى فى الرواق العباسى، ويلقيه الشيخ سيد المرصفى فى الأدب، وسمعوا ديوان الحماسة.

وكانوا قد فتنوا بهذا الدرس حين سمعوه فلم يعودوا إلى غرفاتهم حتى اشتروا هذا الديوان، وأزمعوا أن يحضروا الدرس وأن يعنوا به وأن يحفظوا الديوان نفسه. وأسرع أخو الصبى كعادته دائما، فاشترى شرح التبريزى لديوان الحماسة وجَلَدَه تجليدًا ظريفًا، وزين به دولابه ذاك، وإن كان قد نظر فيه بين حين وحين. وقد جعل أخو الصبى يحفظ ديوان الحماسة ويحفظه لأخيه، وربما قرأ عليه شيئا من شرح التبريزى. وكان يقرؤه على نحو ما كان يقرأ كتب الفقه والأصول، ويتفهمه على نحو ما يتفهم هذه الكتب.

وكان الصبى يحس أن هذا الكتاب لا ينبغى أن يُقرأ على هذا النحو ولا أن يفهم على هذا النحو.

ولكن أولئك الشباب لم يلبثوا أن أعرضوا عن هذا الدرس كما أعرضوا عن غيره من دروس الأدب؛ لأنهم لم يروه جدًا، ولأنه لم يكن من الدروس الأساسية فى الأزهر وإنما كان درسًا إضافيًا من هذه الدروس التى أنشأها الأستاذ الإمام، والتى كانت تسمى دروس العلوم الحديثة؛ وكانت منها الجغرافيا والحساب والأدب. ولأن الشيخ كان يسخر منهم فيسرف فى السخرية، ويعبث بهم فيغلوا فى العبث.

ساء ظنه بهم، فرآهم غير مستعدين لهذا الدرس الذى يحتاج إلى الذوق ولا يحتمل الفنقلة. وساء ظنهم به، فرأوه غير متمكن من العلم الصحيح ولا بارع فيه، وإنما هو صاحب شعر ينشد وكلام يقال، ونكت تضحك ثم لا يبقى منها شيء.

وكانوا مع ذلك حراصًا على أن يحضروا هذا الدرس؛ لأن الأستاذ الإمام كان يحميه، ولأن الشيخ كان مقربًا من الأستاذ الإمام، ينتهز كل فرصة لينشئ فى مدحه قصيدة يرفعها إليه ثم يمليها على الطلاب، ويأخذ بعضهم يحفظها على أنها من جيد الشعر ورائعه. وكانوا يرونها جيدة ورائعة لأنها كانت فى مدح الأستاذ الإمام.

وقد بذلوا ما استطاعوا من الجهد للمواظبة على هذا الدرس، ولكنهم لم يطيقوا عليه صبرًا، فانصرفوا عنه وعادوا إلى شايهم يستمتعون به فى الضحى على مهل. وانقطع عن صاحبنا ذكر الأدب بعد أن حفظ من ديوان الحماسة جزءًا صالحًا. ثم أشيع ذات يوم أن الشيخ المرصفى سيخصص يومين من أيام الأسبوع لقراءة المفصل للزمخشرى فى النحو. فسعى صاحبنا إلى هذا الدرس الجديد. ولم يسمع للشيخ مرة ومرة حتى أحبه وكلف به، وحضر درس الأدب فى أيامه من الأسبوع، ولزم الشيخ منذ ذلك الوقت.

وكان الصبى قوى الذاكرة، فكان لا يسمع من الشيخ كلمة إلاحفظها، ولا رأيًا إلا وعاه، ولا تفسيرًا إلا قيده فى نفسه.

وكثيراً ما كان يعرض البيت وفيه كلمة قد مضى تفسيرها أو إشارة إلى قصة قد قصها الشيخ فيما قدم من درسه، فكان صاحبنا يعيد على الشيخ ما حفظ من قصصه وتفسيره وما قيد من آرائه وخواطره ونقده لصاحب الحماسة وشراحها، وتصحيحه لرواية أبى تمام، وإكماله للمقطوعات التى كان أبو تمام يرويها.

وإذا الشيخ يحب الفتى ويكلف به، ويوجه إليه الحديث فى أثناء الدرس، ويدعوه إليه بعد الدرس فيصحبه إلى باب الأزهر ثم يدعوه إلى أن يصحبه فى بعض الطريق، وقد دعاه ذات يوم إلى أن يبعد معه فى السير، حتى انتهى الشيخ وتلميذه هذا وتلاميذ آخرون إلى قهوة فجلسوا فيها، وكان هذا أول عهد الفتى بالقهوات. وقد طال المجلس منذ صليت الظهر حتى دعا المؤذن إلى صلاة العصر. وعاد الفتى سعيدًا مغتبطًا قوى الأمل شديد النشاط.

ولم يكن للشيخ حديث إلى تلاميذه إذا تجاوز درس الأدب إلا الأزهر وشيوخه وسوء مناهج التعليم فيه. وكان الشيخ قاسيًا إذا طرق هذا الموضوع. وكان نقده لاذعا وتشنيعه على أساتذته وزملائه أليمًا حقًا. ولكنه كان يجد من نفوس تلاميذه هوى، وكان يُؤثِّر فى نفس هذا الفتى خاصة أبلغ تأثير وأعمقه.

وإذا الفتى يُؤْثِرُ هذا الدرس على غيره من الدروس شيئاً فشيئا، ويختص اثنين من التلاميذ المقربين إلى الشيخ بمودته ثم بوقته. وإذا هم يلتقون إذا كان الضحى فيسمعون للشيخ، ثم يذهبون إلى دار الكتب فيقرءون فيها الأدب القديم، ثم يعودون إلى الأزهر بعد العصر فيجلسون فى هذا الممر بين الإدارة والرواق العباسى، يتحدثون عن شيخهم وعما قرءوا فى دار الكتب، ويعبثون بشيوخهم الآخرين، ويعبثون بالداخلين والخارجين من الشيوخ والطلاب. فإذا صليت المغرب دخلوا الرواق العباسى

فسمعوا درس الشيخ بخيت الذى كان يقرأ فى تفسير القرآن مكان الأستاذ الإمام بعد أن توفى.

وما أعرف شيئاً يدفع النفوس، ولا سيما النفوس الناشئة، إلى الحرية والإسراف فيها أحيانا كالأدب، وكالأدب الذى يدرس على نحو ما كان الشيخ المرصفى يدرسه لتلاميذه حين كان يفسر لهم الحماسة أو يفسر لهم الكامل بعد ذلك. نقد حر للشاعر أولاً، وللراوى ثانيًا، وللشرح بعد ذلك، وللغويين على اختلافهم بعد أولئك وهؤلاء. ثم امتحان للذوق ورياضة له على تعرف باطن الجمال فى الشعر أو النثر، فى المعنى جملة وتفصيلا، وفى الوزن والقافية وفى مكان الكلمة بين أخواتها. ثم اختبار للذوق الحديث فى هذه البيئة التى كان يلقى فيها الدرس، وموازنة بين غلظة الذوق الأزهرى ورقة الذوق القديم، وبين كلال العقل الأزهرى ونفاذ العقل القديم، وانتهاء من هذا كله إلى تحطيم القيود الأزهرية جملة، وإلى الثورة على الشيوخ فى علمهم وذوقهم وفى سيرتهم وأحاديثهم بالحق فى كثير من الأحيان، والإسراف والتجنى فى بعض الأحيان.

ومن أجل هذا لم يثبت حول الشيخ من تلاميذه الذين كثروا أول الأمر إلا نفر قليل، وامتاز منهم هؤلاء الثلاثة خاصة، فكونوا عصبة صغيرة ولكنها لم تلبث أن بعُدَ صوتها فى الأزهر، وتسامع بها الطلاب والشيوخ، وتسامعوا خاصة بنقدها للأزهر وثورتها على التقاليد، وبما كانت تنظم من الشعر فى هجاء الشيوخ والطلاب، وإذا هى بغيضة إلى الأزهريين مهيبة منهم فى وقت واحد.

ولم يكن الشيخ أستاذًا فحسب، ولكنه كان أديبا أيضًا، ومعنى ذلك أنه كان يصطنع وقار العلماء إذا لقى الناس أو جلس للتعليم فى الأزهر، فإذا خلا إلى أصدقائه وخاصتهم عاش معهم عيشة الأديب، فتحدث فى حرية مطلقة عن كل إنسان وعن كل موضوع، وروى لخاصته من شعر

القدماء ونثرهم وسيرتهم ما يثبت أنهم كانوا أحرارًا مثله، يقولون فى كل شىء وفى كل إنسان لا متنطعين[1] ولا متحفظين، كما كان يقول.

وكان أيسر شىء وأهونه أن يذهب الطلاب مذهب شيخهم، ولا سيما، إذا أحبوه وأكبروه، ورأوا فيه المثل الأعلى للصبر على المكروه والرضا بالقليل، والتعفف عما لا يليق بالعلماء، وأصحاب السلطان.

كان تلاميذ الشيخ يرون منه ذلك رأى العين ويلمسونه بأيديهم، ويعيشون معه، فى حين كانوا يزورونه فى منزله ذلك المتهدم الخرب القديم فى حارة قذرة من حارات باب البحر يقال لها «حارة الركراكى». هناك فى أقصى هذه الحارة كان يسكن الشيخ، بيتًا قذرًا متهدمًا، تدخل فيه من بابه، فإذا أنت فى ممر ضيق رطب تنبعث فيه روائح كريهة، قد خلا من كل شىء إلا هذه الدكة الخشبية الضيقة الطويلة العارية التى قد أسندت إلى حائط يتساقط منه التراب.

وكان الشيخ ينزل لتلاميذه فيجلس معهم على هذه الدكة، ولكنه يجلس راضيًا مطمئنًا، يسمع لهم باسمًا ويتحدث إليهم أرق الحديث وأعذبه وأصفاه وأبرأه من التكلف. وربما كان مشغولا حين يقبل تلاميذه لزيارته، فيدعوهم إلى غرفته، فيصعدون إليه فى سلم متهدم، ويسلكون إليه دهليزا خاليًا من كل شىء قد انتشر فيه ضوء الشمس. حتى إذا بلغوا غرفته دخلوا على شيخ منحنٍ قد جلس على الأرض، ومن حوله عشرات الكتب يبحث فيها عن مقطوعة يريد أن يتمها، أو بيت يريد أن يفسره، أو لفظ يريد أن يحققه، أو حديث يريد أن يصحح الرأى فيه، وعن يمينه أدوات القهوة. فإذا دخلوا عليه لم يقم لهم، وإنما تلقاهم مستبشرًا فرحًا، ثم دعاهم إلى الجلوس حيث يستطيعون، ودعا أحدهم إلى صنع القهوة وإدارتها عليه وعليهم. ثم تحدث إليهم لحظات، ثم دعاهم إلى أن يشاركوه فيما كان بسبيله من بحث أو تحقيق.

---

(١) متنطعين: متكلفين غلاة.

ولم ينس الفتى وأحد صديقيه أنهما زارا الشيخ ذات يوم حين صليت العصر. لما صعدا إليه لقيا شيخاً قد جلس على فراش متواضع ألقى فى هذا الدهليز، وإلى جانبه امرأة محطمة قد انحنت حتى كاد رأسها يبلغ الأرض والشيخ يطعمها بيده.

فلما رأى تلميذيه هش لهما، وأمرهما أن ينتظراه فى غرفته شيئًا. ثم أقبل عليهما بعد حين وهو يقول ضاحكًا راضى النفس: «كنت أعشّى أمى »

كان هذا الشيخ إذا خرج من داره صورة الوقار والدعة، وأمن النفس وطمأنينة القلب وصفاء الضمير. وكان صورة الغنى واليسار، لا يحس من يتحدث إليه إلا رجلا قد يسر عليه فى الرزق، فهو يعيش عيشة أمن وهناءة وهدوء.

ولكن تلاميذه وخاصته كانوا يعلمون حق العلم أنه كان من أشد الناس فقرًا وأضيقهم يدًا، وأنه كان ينفق الأسبوع أو الأسابيع لا يطعم إلا خبز الجراية يغمسه فى شىء من الملح، وكان على ذلك يعلم ابنه تعليمًا ممتازًا، ويرعى غيره من أبنائه الذين كانوا يطلبون العلم فى الأزهر رعاية حسنة، ويدلل ابنته تدليلا مؤثرًا. يصنع هذا كله براتبه الضئيل الذى لم يكن يتجاوز ثلاثة جنيهات ونصف جنيه. كان من أصحاب الدرجة الأولى، فكان يتقاضى جنيهًا ونصف جنيه لذلك، وكان الأستاذ الإمام قد كلفه درس الأدب فكان يتقاضى لذلك جنيهين. وكان يستحى أن يقبض راتبه أول الشهر، ويكره أن يختلط بالعلماء وهم يتهافتون على «المباشر» ليتقاضوا منه رواتبهم، فكان يدفع خاتمه إلى تلميذ من خاصته ليقبض له هذا الراتب الضئيل فى الضحى ويؤديه إليه بعد الظهر.

كذلك كان يعيش هذا الشيخ، وكان تلاميذه يرونه ويشاركونه فى حياته تلك البائسة الحرة الممتازة. وكانوا يرون ويسمعون من أمر شيوخ آخرين ما كان يملأ قلوبهم غيظًا وحقدًا، ونفوسهم ازدراء واحتقارًا. فأى

غرابة فى أن يفتنوا بشيخهم ويتأثروه فى سيرته وفى مذهبه وفى ازدرائه للأزهريين وثورته بما كان لهم من تقاليد!

لم ينكر تلاميذ الشيخ عليه فى ذلك العهد إلا أنه انحرف ذات يوم عن الوفاء للأستاذ الإمام حين تولى الشيخ الشربينى مشيخة الأزهر، فنظم الشيخ قصيدة يمدح فيها الشيخ الجديد، وكان تلميذاً للشيخ ومحباً له. وكان الشيخ الشربينى خليقا بالحب والإعجاب. وأملى الشيخ المرصفى على تلاميذه قصيدته التى سماها ثامنة المعلقات، والتى عارض بها قصيدة طرفة. فلما فرغ من إملائها والتف حوله تلاميذه، مضى فى الثناء على أستاذه، وعرض بالأستاذ الإمام شيئًا، فرده بعض تلاميذه فى رفق، فارتد أسفًا خجلا واستغفر الله من خطيئته.

وكذلك اندفع هؤلاء التلاميذ فيما دفعهم إليه حبهم للشيخ وتأثرهم به، فأسرفوا على أنفسهم وعلى شيخهم أيضًا.

لم يكتفوا بهذا العبث الذى كانوا يعبثونه بالشيوخ والطلاب، ولكنهم جعلوا يجهرون بقراءة الكتب القديمة وتفضيلها على الكتب الأزهرية. يقرءون كتاب سيبويه أو كتاب المفصل فى النحو، ويقرءون كتابى عبدالقاهر الجرجانى فى البلاغة، ويقرءون دواوين الشعراء لا يتحرجون فى اختيار هذه الدواوين ولا فى الجهر بإنشاد ما كان فيها من شعر المجون أحياناً فى الأزهر، ويقلدون هذا الشعر ويتناشدون ما ينشئون من ذلك إذا التقوا. والطلاب ينظرون إليهم شزراً، ويتربصون بهم الدوائر، وينتهزون بهم الفرص. وربما أقبل عليهم بعض الطلاب الناشئين يسمعون منهم ويتحدثون إليهم، ويريدون أن يتعلموا منهم الشعر والأدب، فيغيظ ذلك نظراءهم من الطلاب الكبار ويزيدهم موجدة عليهم وائتمارًا بهم.

وإن فتياننا الثلاثة لفى مجلسهم حول الشيخ عبد الحكم عطا وإذا هم يُدْعَوْنَ إلى حجرة شيخ الجامع، فيذهبون واجمين لا يفهمون شيئًا. فإذا دخلوا على الشيخ «حسونة» لم يجدوه وحده وإنما وجدوا من حوله

أعضاء مجلس إدارة الأزهر وهم من كبار العلماء؛ فيهم الشيخ بخيت، والشيخ محمد حسنين العدوى، والشيخ راضى وآخرون. ويلقاهم الشيخ متجهمًا، ثم يأمر رضوان رئيس المنشدين أن يدعو من عنده من الطلاب. فيقبل جماعة من الطلاب فيسألهم الشيخ عما عندهم. ويتقدم أحدهم فيتهم هؤلاء الفتية بالكفر لمقالتهم فى الحجاج، ثم يقص من أمرهم الأعاجيب.

وكان هذا الطالب ماهرًا حقًّا؛ فقد أحصى على هؤلاء الفتية كثيرًا جدًا مما كانوا يعيبون به الشيوخ، ومما كانوا يعيبون به الشيخ بخيت والشيخ محمد حسنين والشيخ راضى والشيخ الرفاعى، وكانوا جميعًا حاضرين، فسمعوا بآذانهم آراء هؤلاء الفتية فيهم. وشهد طلاب آخرون بصدق هذا الطالب فى كل ما قاله. وسئل الفتية فلم ينكروا مما سمعوا شيئًا. ولكن الشيخ لم يحاورهم ولم يداورهم، وإنما دعا إليه رضوان فأمره فى شدة بمحو أسماء هؤلاء الطلاب الثلاثة من الأزهر؛ لأنه لا يريد مثل هذا الكلام الفارغ، ثم صرفهم عنه فى عنف. فخرجوا وجلين قد سقط فى أيديهم لا يعرفون ماذا يصنعون، ولاكيف يصورون هذه القصة لأهلهم.

ولم يقف أمرهم عند هذا الحد ولا عند نظر الطلاب إليهم فى ضحك منهم وشماتة بهم، ولكنهم أقبلوا بعد صلاة العشاء ليلقوا شيخهم المرصفى وليسمعوا منه درس الكامل. وأقبل الشيخ، فلقيه رضوان وأنبأه فى أدب ولطف بأن شيخ الجامع قد ألغى درس الكامل، وبأنه ينتظره فى مكتبه إذا كان الغد.

فانصرف الشيخ محزونًا، ومضى معه تلاميذه الثلاثة خجلين وجلين، والشيخ يسرى عنهم مع ذلك. حتى إذا كانوا فى بعض الطريق خطر لهم أن يذهبوا إلى الشيخ بخيت ليستعطفوه ويوسطوه عند شيخ الجامع. وقال لهم شيخهم: لا تفعلوا، فلن تبلغوا من سعيكم هذا شيئًا، ولكنهم مضوا مع ذلك إلى دار الشيخ بخيت. فلما أدخلوا عليه عرفهم فتلقاهم ضاحكًا، ثم سألهم عن جلية أمرهم فى فتور. فلما أخذوا يدافعون

عن أنفسهم قال لهم فى فتور أيضًا: ولكنكم تدرسون الكامل للمبرد، وقد كان المبرد من المعتزلة، فدرسُ كتابه إثم.

وهنالك نسى الفتية أنهم جاءوا مستعطفين، وأخذوا يجادلون الشيخ حتى أحفظوه. وانصرفوا عنه وقد ملأه الغضب وملأهم اليأس. ولكنهم مع ذلك تضاحكوا من الشيخ وأعادوا بعض كلماته، وتفرقوا وقد تعاهدوا على أن يخفوا الأمر على أهلهم حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولا.

ولقوا شيخهم من الغد، فأنبأهم بأن شيخ الجامع قد حظر عليه قراءة الكامل، وكلفه قراءة المغنى لابن هشام، ونقله من الرواق العباسى إلى عمود فى داخل الأزهر.

ثم جعل الأستاذ يعبث بشيخ الجامع، ويزعم لتلاميذه أنه لم يخلق للعلم ولا للمشيخة، وإنما خلق ليبيع العسل الأسود فى سرياقوس، وكان قد فقد أسنانه فكان ينطق السين ثاء، وكان يتكلم لغة القاهرة فكان يجعل القاف همزة، ويمد الواو بينها وبين السين، وكان يتكلم هامساً، فلم ينس تلاميذه قط هذه الجملة التى طبعوا بها الشيخ حسونة رحمه الله،فسمعوه «بائع العثل فى ثرياؤوث».

ولكن بائع سرياقوس هذا كان شديدًا حازمًا وكان مهيبًا صارمًا، يخافه الشيوخ جميعاً ومنهم الشيخ المرصفى؛ فقد أخذ يقرأ كتاب المغنى، وذهب إليه تلاميذه مطمئنين، وما يعنيهم أن يقرأ الشيخ هذا الكتاب أو ذاك. حسبهم أن يقرأ الشيخ وأن يسمعوا منه ويقولوا له وقد سمعوا منه. فلما هم الفتى أن يقول له بعض الشىء أسكته فى رفق وهو يقول: «لأ، لأ، عاوزين ناكل عيش». ولم يعرف الفتى أنه حزن منذ عرف الأزهر كما حزن حين سمع هذه الجملة من أستاذه، فانصرف عنه ومعه صديقاه وإن قلوبهم ليملؤها حزن عميق.

على أنهم لم يرضوا بهذه العقوبة التى فرضها عليهم شيخ الجامع، وإنما فكروا فى الطريق التى يجب أن يسلكوها ليرفعوا عن أنفسهم هذا الظلم. فأما أحدهم فقد آثر العافية وفارق صاحبيه واتخذ لنفسه مجلسًا فى جامع المؤيد بمعزل من العدو والصديق حتى تهدأ العاصفة. وأما الآخر فقص الأمر على أبيه، وجعل أبوه يسعى فى إصلاح شأن ابنه سعيًا رفيقًا. ولكن الفتى لم يفارق صاحبه ولم يعتزل عدوًا ولا صديقًا، وإنما كان يلقى صاحبه كل يوم فيتخذان مجلسهما بين الرواق العباسى والإدارة، ويمضيان فيما تعودا أن يمضيا فيه من العبث بالطلاب والشيوخ.

وأما صاحبنا فلم يحتج إلى أن يقص الأمر على أخيه، فقد انتهى الأمر إلى أخيه من طريق لا يعرفها. ولكن أخاه لم يلمه ولم يعنف عليه، وإنما قال له: «أنت وما تشاء فستجنى ثمرة هذا العبث وستجدها شديدة المرارة». ولكن الفتى لم يكن يعرف رفقًا ولا لينًا؛ فلم يسعَ إلى أحد ولم يتوسل إلى الشيخ بأحد، وإنما كتب مقالا عنيفًا يهاجم فيه الأزهر كله وشيخ الأزهر خاصة ويطالب بحرية الرأى. وماذا يمنعه من ذلك وكانت الجريدة قد ظهرت وكان مديرها يدعو كل يوم إلى حرية الرأى.

وذهب صاحبنا بمقاله إلى مدير الجريدة فتلقاه لقاء حسنًا فيه كثير من العطف والإشفاق. وقرأ المقال ثم دفعه ضاحكًا إلى صديق له كان فى مجلسه يومئذ، فألقى الصديق نظرة على هذا المقال ثم قال غاضبًا: لو لم تكن قد عوقبت على ما جنيت من ذنب لكانت هذه المقالة وحدها كافية لعقابك. وهم الفتى أن يرد على هذا الصديق، ولكن مدير الجريدة قال له مترفقًا: إن الذى يحدثك هو حسن بك صبرى مفتش العلوم الحديثة فى الأزهر. ثم قال له: أتريد أن تشتم الشيخ وتعيب الأزهر، أم تريد أن يرفع عنك هذا العقاب ؟ قال الفتى: بل أريد أن يرفع عنى هذا العقاب، وأن أستمتع بحقى من الحرية. قال مدير الجريدة: فدع لى إذن هذه القصة وانصرف راشداً.

وقد انصرف الفتى، ثم لم يلبث أن تبين وتبين معه صاحباه، أن شيخ الجامع لم يعاقبهم ولم يمحُ أسماءهم من سجلات الأزهر، وإنما أراد تخويفهم ليس غير.

ومنذ ذلك الوقت اتصل الفتى بمدير الجريدة وجعل يتردد عليه، حتى جاء وقت كان يلقاه فيه كل يوم.

وفى مكتب مدير الجريدة ظفر الفتى بشىء طالما تمناه، وهو أن يتصل ببيئة الطرابيش بعد أن سئم بيئة العمائم، ولكنه اتصل من بيئة الطرابيش بأرقاها منزلة وأثراها ثراء، وكان وهو فقير متوسط الحال فى أسرته، سيئ الحال جدًا إذا قام فى القاهرة. فأتاح له ذلك أن يفكر فيما يكون من هذه الفروق الحائلة بين الأغنياء المترفين والفقراء البائسين.

المناقشة

١. «كذلك اتصل صاحبنا بالأدب على هذا النحو المضطرب المختلط». اذكر كيف اتصل الصبى بدراسة الأدب ؟

٢. كان لمشايخ الأزهر دور واضح فى إقبال الصبى على تعلم الأدب. وضح ذلك.

٣. اذكر الأسباب الحقيقية التى جعلت الفتى يؤثر درس الشيخ المرصفي.

٤. تغيرت نظرة الرفاق الثلاثة إلى شيخهم المرصفى فى آخر الأمر. وضح ذلك، وما أثر ذلك على نفس الفتى ؟

أسئلة عامة على كتاب الأيام

١. «وكان يشعر بأن له بين هذا العدد الضخم من الشباب والأطفال مكاناً خاصاً يمتاز من مكان إخوته وأخواته أكان هذا المكان يرضيه؟ أكان يؤذيه ؟ الحق أنه لا يتبين ذلك إلا فى غموض وإبهام »

- هات مرادف «إبهام »، ومضاد «الضخم » وجمع «مكانا » فى جمل من عندك.
- لماذا كان للفتى مكان خاص بين إخوته ؟
- ما ترتيب الفتى بين إخوته ؟

٢. «ثم يبلغ الصبى بيته، فيدخل إلى غرفة هى أشبه بالدهليز قد تجمعت فيها المرافق المادية للبيت، وهى تنتهى به إلى غرفة أخرى واسعة غير مستقيمة قد تجمعت فيها المرافق العقلية للبيت، وهى على ذلك غرفه النوم، وغرفه الطعام وغرفة الحديث وغرفة السمر وغرفة القراءة والدرس، فيها الكتب وفيها أدوات الشاي، وفيها بعض رقائق الطعام ...»

اختر الإجابة الصحيحة لما يلى مما بين القوسين:

- المقصود «بالدهليز »: (السلم — المدخل — الطريق- الممر)
- المقصود «بالمرافق المادية للبيت » :

(المتاع — الأثاث — الأموال- الحجرات)

- يفهم من الفقرة أن المسكن مكون من :

(ست غرفات- خمس غرفات — غرفتان — غرفة واحدة)

— «بعض من » رقائق الطعام تدل علي:

(لين العيش — قلة الطعام — دقة الصنع- خشونة العيش)

١. مامدى ملاءمة العنوان الذى اتخذه المؤلف لسيرته؟ دلل على رأيك.

٢. اقترح عنوانا آخر للكتاب مبينا سبب اختيارك له.

٣. أى فصول الكتاب استأثر باهتمامك؟ ولماذا؟

٤. استخلص مما درست فى سيرة حياة طه حسين أهم ما يميز شخصيته مدللا على كل ميزة بما يؤكدها من مواقف وأحداث.

٥. «لم يكن ذوو الحاجات الخاصة يجدون ما يتوافر لهم اليوم من رعاية.ناقش تلك المقولة فى ضوء ما درست من سيرة طه حسين.

٦. تميز طه حسين بأسلوب واضح ولغة سلسة طيعة ومفردات غزيرة. من أين اكتسب طه حسين هذه الثروة القيمة؟

٧. وازن طه حسين بين الأصالة والمعاصرة. وضح ذلك فى ضوء ما قرأت من سيرته.

٨. فى ضوء قراءتك لفصول الكتاب قارن بين طلاب العلم فى الماضى، وطلاب العلم اليوم من حيث الإقبال على العلم والطاقة لبذل الجهد وتحمل المشقة وصعوبة العلوم وكثرتها.

٩. استخلص من أحداث تلك السيرة أهم ملامح العلاقات التى كانت تسيطر على أفراد الأسرة وعلاقات الزملاء فى الدراسة والعمل.

١٠. ما الجهود التى بذلتها الحكومة المصرية فى سبيل النهوض بالتعليم الجامعى فى مصر ؟ وما دليلك ؟

١١. اتسم طه حسين فى كثير من مواقف حياته بالحدة والاندفاع ما رأيك فى هذه المقولة ؟ وما دليلك ؟

المواصفات الفنية :

مقـــاس الكتـــــاب	$\frac{1}{16}$ ٧٠ × ١٠٠ سم
طبــــع المــــــتن	١ لـون
طبــــع الغـــــلاف	٤ لـون
ورق المـــــــــتن	٧٠ جرام أبيض
ورق الغـــــــــلاف	١٨٠ جم كوشية
عدد الصفحات بالغلاف	١٤٤ صفحـة
رقـــم الكتــــاب	٥٨/٢/٣٣/٢/١٠/٤٦٩

رقم الإيداع	/

٢ / /

طبع بمطابع أكتوبر (ج . م . ع .)